هذه صفحات من هذا الكتاب المبتكر

المهذب من إحياء علوم الدين

لشيخنا صالح الشامي

وقد استئذناه - حفظه الله - في

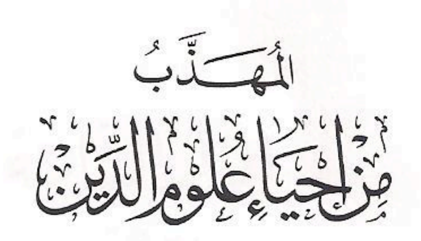
تصوير "بعض" صفحات كتبه فأذن جزاه الله خيراً

تصوير

marthad.wordpress.com

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

نشر على موقع الألوكة





المُهذَّب

مِنْ إحياء علوم الدين

إعداد

صالح أحمد الشّامي

الجزء الأوّل

الدّار الشّاميّة
بيروت

دار القلم
دمشق

الطّبعة الثانية
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الإعداد

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللَّهم لك الحمد، وبك المستعان ولا حول ولا قوة إلاَّ بك.

وبعد:

ليس من الصواب أن يكرر الإنسان أعمال الآخرين، فيشغل نفسه وغيره بما لا جديد فيه، فيكون عمله في تحصيل ما هو حاصل، وما لا طائل تحته، وهو بذلك يضيع وقته وأوقات الآخرين. وفي هذا ما فيه من المسؤولية أمام الله تعالى.

والعمل الذي نقدمه اليوم، ليس من هذا الباب، وليس هو مختصراً آخر يضاف إلى قائمة المختصرات الكثيرة التي وضعت لكتاب (إحياء علوم الدين) لحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي.

ولكنه «الإحياء» نفسه في صورة مصغرة، لها ما للصورة الكبيرة. وفيها ما فيها من المعالم والظلال، بل قد بذل الجهد في تنقيتها من المشوهات، فزال بذلك الغبش الذي اكتنف بعض جوانبها، فبرزت فيها ملامح كانت متوارية وراء حجاب. فاستكملت بذلك معالمها، وبرز حسنها وجمالها واضحاً أخاذاً.

فنحن ـ إذن ـ لسنا أمام مختصر لكتاب الإحياء، ولذا لم تكن كلمة «مختصر» أو «منتقى» صالحة لتكون عنواناً له، إذ لا تعبِّر عن حقيقة العمل، التي هي التهذيب، فعملنا الذي نقدمه هو: ما بقي من الكتاب بعد التهذيب فكان «المهذب من إحياء علوم الدين».

وقبل الحديث عن عملي في الكتاب والدوافع له، لا بد من نبذة يسيرة عن كتاب إحياء علوم الدين وعن مؤلفه رحمه الله تعالى.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنه نعم المسؤول، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رب العالمين.

غرة محرم الحرام ١٤١٢هـ

تموز (يوليو) ١٩٩١م

صالح أحمد الشامي

ترجمة الإمام الغزالي

هو الإمام محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي، أبو حامد حجة الإسلام.

ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة، وبدأ حياته العلمية فيها، ثم سافر إلى جرجان فاستمع إلى أبي نصر الإسماعيلي، وبعد عودته إلى طوس سافر إلى نيسابور ولازم إمام الحرمين، وجد واجتهد وبرع في مذهب الإمام الشافعي ومسائل الخلاف، وقرأ المنطق والجدل والحكمة والفلسفة، وأحكم ذلك كله، وصنف في كل فن من هذه الفنون كتباً أحسن تأليفها وأجاد وضعها.

كان شديد الذكاء، بعيد الغور، غواصاً على المعاني الدقيقة.

ولما مات إمام الحرمين، اتصل بالوزير نظام الملك، الذي أعجب به، فولاه التدريس بمدرسته ببغداد فقدمها سنة (٤٨٤)هـ وأعجب الخلق بحسن كلامه، وكمال فضله، وفصاحة ألفاظه، وإشاراته اللطيفة.

وأقام على التدريس مدة، عظيم الجاه، عالي الرتبة، مشهور الاسم، تُضرب به الأمثال وتُشد إليه الرحال، ثم شرفت نفسه فعزفت عن الدنيا، فرفض ما فيها من الجاه، وترك كل ذلك وراء ظهره، فقصد بيت الله الحرام، فحج ثم توجه إلى الشام سنة (٤٨٨)هـ وجاور في بيت المقدس ثم عاد إلى دمشق، واعتكف في زاويته بالجامع الأموي، المعروفة بالغزالية نسبة إليه، حيث لبس الثياب الخشنة، وقلَّل طعامه، وأخذ في تصنيف الإحياء.

ثم رجع إلى بغداد وعقد مجلساً بالمدرسة النظامية، ثم تابع طريقه إلى طوس، واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء، ووزع أوقاته على وظائف ختم القرآن والتدريس وإدامة الصلاة والعبادة، إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى، يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة.

قال الحافظ ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية»: برع ـ الغزالي ـ في علوم كثيرة، وله مصنفات في فنون متعددة فكان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم به، وساد في شبيبته، حتى إنه درّس بالنظامية ببغداد وله أربع وثلاثون سنة، فحضر عنده رؤوس العلماء، وكان ممن حضره أبو الخطاب، وابن عقيل، وهما من رؤوس الحنابلة، فتعجبوا من فصاحته واطلاعه. قال ابن الجوزي: وكتبوا كلامه في مصنفاتهم[١].

و«لقد عاش الغزالي حياته أول الأمر كما يعيش جل علماء زمانه، وعلماء زماننا، أكبر همه الشهرة والجاه والمحمدة عند الناس، والتفوق على الأقران، والغلبة في المناظرة، وقد أدرك من ذلك حظاً عظيماً، ثم انقشعت الغشاوة عن عين بصيرته، فاكتشف أن هذا كله سراب بقيعة ﴿يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾، فصمم على أن ينسحب من هذه الحلبة الصاخبة، وينخلع من هذه الحياة الزائفة في اعتقاده، التي ظاهرها الدين، وباطنها الدنيا، وأن يعيش حياة أخرى، قوامها الزهد والتجرد والإخلاص لله، حياة يرى أن علمه وتعليمه، ومحياه ومماته فيها لله رب العالمين لا شريك له، وهكذا كما قال التاج السبكي: ترك الدنيا وراء ظهره، وأقبل على الله يعامله في سره وجهره»[٢].

أما سعة علمه وثقافته فنترك الحديث عنها لشيخ الأزهر المرحوم محمد مصطفى المراغي إذ قال: «إذا ذكرت أسماء العلماء، اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم، وشعب المعرفة، فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابي، خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام، وإذا ذكر البخاري ومسلم وأحمد، خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ، والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال.

أما إذا ذكر الغزالي، فقد تشعبت النواحي، ولم يخطر بالبال رجل واحد، بل خطر بالبال رجال متعددون، لكل واحد قدرته، وقيمته.. يخطر بالبال الغزالي

---

(١) البداية والنهاية (١٢/١٧٣).

(٢) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، للدكتور يوسف القرضاوي، ص (١٠٦).

الأصولي الحاذق الماهر، والغزالي الفقيه الحر، والغزالي المتكلم، إمام السنَّة وحامي حماها، والغزالي الاجتماعي، الخبير بأحوال العالم، وخفيات الضمائر، ومكنونات القلوب، والغزالي الفيلسوف، أو الذي ناهض الفلسفة، وكشف عما فيها، إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره. رجل متعطش إلى معرفة كل شيء، نهم إلى فروع المعرفة»[1].

ومصنفات الغزالي كثيرة، منها:

في الفقه: البسيط، والوسيط، والوجيز، والخلاصة.

وفي الأصول: المنخول، والمستصفى الذي اختصره من كتابه: تهذيب الأصول.

وفي الفلسفة والمنطق والكلام: مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة، والمنقذ من الضلال، والاقتصاد في الاعتقاد، وفيصل التفرقة، وقواعد العقائد، والمقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ومعيار العلم، ومحك النظر، وإلجام العوام عن علم الكلام، وجواهر القرآن.

وفي التصوف والتربية والأخلاق: إحياء علوم الدين، ومنهاج العابدين، وبداية الهداية، وميزان العمل، ومعراج السالكين، وأيها الولد.

وفي الفرق والأديان: فضائح الباطنية، وحجة الحق، ومفصل الخلاف.. وغير ذلك.

نكتفي بهذا القدر من الترجمة ومن أراد التوسع فليرجع إلى ذلك في مظانه[2].

***

---

(١) المصدر السابق ص (١٨).

(٢) من الكتب القيمة في ذلك الكتاب المذكور للدكتور القرضاوي، الطبعة الأولى (١٤٠٨)هـ، طبع دار الوفاء بالمنصورة.

كتاب «إحياء علوم الدّين»

يُعدُّ كتاب «إحياء علوم الدين» ــ وهو موضوع بحثنا ــ أعظم كتب الغزالي وأكثرها شهرة، وقد أخذ مكانته في المكتبة الإسلامية، وفرض وجوده على مر الأيام، مذ ألفه مصنفه وحتى وقتنا الحاضر، و(لا يعرف كتاب ــ بعد القرآن والصحاح ــ أثر في حياة المسلمين مثله) كما يقول الدكتور القرضاوي.

وقد اهتم به العلماء وغير العلماء، وكثر المادحون له. وانتشر ذكره في العالم الإسلامي كله، واعتبر مرجعاً في علوم الشريعة والأخلاق والتربية..

ومع هذه المكانة العظيمة التي تبوأها الكتاب، فقد كان فيه من الثغرات، ما جعله هدفاً لقدح القادحين وإنكار المنكرين.

والناقدون للكتاب فريقان:

فريق معتدل: أراد بنقده وجه الله تعالى في بيان الحق، والتوجيه إلى الصواب.

وفريق آخر: قد لا يخلو من النية الطيبة، ولكن ضيق أفقه، وانغلاقه على ما تمذهب به، جعله يخرج عن حدود الأدب الإسلامي في النقد، وعن هؤلاء صدرت كلمات الذم النابية في حق الكتاب والمؤلف، مما هو بعيد عن روح العلم ومنطقه.

ونستطيع إجمال أهم ما انتقد به الكتاب بالنقاط التالية:

١ ــ حشو الكتاب بالأحاديث الضعيفة بل والموضوعة.

٢ ــ ذكر أغاليط الصوفية وترهاتهم، وبعض كلماتهم وحكاياتهم المجانبة للصواب.

٣ ــ خلط الكتاب ببعض المعارف الفلسفية.

وقد ذكر شارح الكتاب «الزبيدي» كثيراً من هذه الانتقادات، وناقشها، أو نقل مناقشات غيره لها، كالعلاَّمة تاج الدين السبكي.

وليس من مهمة هذه المقدمة مناقشة ذلك وإطالة الكلام فيه.

ولا بد لي هنا من ذكر بعض خصائص الكتاب وميزاته وما أكثرها، ومن ذلك:

١ ـ فالكتاب ـ إضافة لمهمته الأصيلة ـ دراسة وافية لواقع المسلمين الاجتماعي من جوانبه المتعددة. نلمح ذلك من خلال حديث المصنف عن المنكرات وهو يتتبعها في كل مكان: في المساجد، والأسواق والشوارع والحمامات.. حتى أنه ليصف لنا سلوك بعض القصابين الذين يذبحون ذبائحهم في الطريق حذاء باب حانوتهم، مما يلوث الطريق ويسيء إلى المسلمين..

ونلمحه أيضاً ونحن نسمع حديثه عن العلماء المترسمين الذين همهم الدنيا، وعن المتصوفة الذين جعلوا من مظاهرهم وسيلة لكسب الدنيا..

ونلمحه أيضاً في حديثه عن الإسراف والتبذير وحديثه عن النقود وأثرها في عملية التبادل التجاري..

إنه بيان لواقع اجتماعي لتلك الفترة من الزمن قلَّما نجدها في كتاب آخر.

٢ ـ وفي الكتاب بيان لمنهج للتربية واضح المعالم يعطي للطفل مكانته فيه، نلاحظ ذلك عندما تحدث المؤلف عن ترتيب التدرج في الاعتقاد، فهناك معلومات أولية تقدم إلى الصبي كي يحفظها حفظاً، ثم لا يزال ينكشف له معناها في كبره شيئاً فشيئاً، فالابتداء الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق، وهو يذكر فصلاً كاملاً ليقدم للطفل وهو الفصل الأول في كتاب الاعتقاد.

كما يتحدث عن أسلوب تربية الطفل ومسؤولية والديه عن ذلك، ابتداء من رضاعه إلى سن التمييز، وكيف ينبغي أن يعلم الآداب في شأن الطعام واللباس والتعليم والرياضة والبعد عن الكسل.. وقد أفردت كلامه هذا في فصل خاص.. في نهاية كتاب رياضة النفس وفي ثنايا الكتاب الكثير الكثير من القواعد التربوية.

٣ ـ شغلت المصنف قضية الجهل المتفشي في أبناء المسلمين، وهو

بالتالي يحمل العلماء مسؤولية ذلك، ويرى أن من الأولويات تقديم تعليم جهال المسلمين على الاشتغال بالتفريعات التي لا طائل تحتها. . (انظر ٢/٣٤٢).

لقد عاش المصنف هموم المسلمين عملياً، وهو يصفها ويشخص الداء تشخيصاً دقيقاً ثم يضع الدواء المناسب.

٤ ـ وتنبه المصنف إلى سبب مهم من أسباب تخلف المسلمين، وهو عدم وضوح ترتيب الواجبات في أذهانهم وفق سلَّم يقدم الأهم على المهم والفرض على الواجب والواجب على المندوب إليه. وقد ترتب على ذلك شرّ كبير. . ومن أمثلة ذلك ما سبق ذكره في الفقرة السابقة من ترك العلماء الجهل المتفشي في صفوف الأمة واشتغالهم بتفريعات لا تطبيق لها في الواقع. ومن أمثلة ذلك الأغنياء الذين أمسكوا أيديهم عن الإنفاق واشتغلوا بالتقرب إلى الله بنوافل الصلاة والذكر، وإنما ميدان تنفلهم بذل الصدقات فقد قيل لبشر: إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة، فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل من تجويع نفسه، ومن صلاته لنفسه. .

ولو ذهبنا نذكر ما في «الإحياء» من خصائص لطال بنا المقام، ولكنا نكتفي بما ذكرناه كمثال على ذلك.

ونختم حديثنا عن الكتاب بلفت النظر إلى ملاحظة مهمة تتعلق بطريقة المؤلف في تناوله لبعض الموضوعات.

فقد ذكر في مقدمة كتابه: أن كتاب الإحياء يتميز بخمسة أمور، منها: (الثاني: ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه)، ونتيجة لهذه الميزة التي التزم بها المؤلف، حسب ما وضع لمصنفه من مخطط للبحث، أن جمعت بعض الموضوعات من جانب ولكنها فرقت ووزعت من جانب آخر، ونضرب لذلك أمثلة:

فإنك لو ذهبت تبحث عن موضوع «النفاق» لم تجد لذكره أثراً في فهرس الكتاب، علماً بأن هذا الموضوع من صلب مادة الكتاب وموضوعه؟!

وكذلك لو ذهبت تبحث عن الجهاد لم تجد لذكره أثراً كذلك؟!

أما «النفاق» فقد ورد الحديث عنه في آخر كتاب «قواعد العقائد» (١/١٢٢ ـ ١٢٤) دون ذكر عنوان واضح، ولا شك أن بحث النفاق مرتبط بالعقيدة.

ثم ورد الحديث عنه مرة أخرى (٣/٣٠٢) عند ذكر المصنف لدرجات الرياء، فذكره في الدرجة الأولى وهي: الرياء بأصل الإيمان، واستشهد بقوله تعالى في الحديث عن المنافقين: ﴿يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلَّا قليلا﴾.

ولا شك بأن النفاق من حيث ظاهره نوع من الرياء. وهكذا جزىء البحث..

وأما «الجهاد في سبيل الله» فقد قسم بحثه إلى أقسام: فهو بذل للنفس (استشهاد في سبيل الله) وهو إنفاق في سبيل الله، وهو مرابطة في سبيل الله.

أما الشهادة في سبيل الله فقد تحدث عنها المصنف في الأماكن التالية:

١/٢١٤ في بحث (آداب الزكاة الباطنة) إذ بيَّن أن أعظم أنواع البذل هو بذل المهج والأرواح. ويكون ذلك بالشهادة.

١/٣٠٢ في بحث التسبيح والتحميد، حيث في الاستشهاد التحقيق الكامل لقول «لا إله إلَّا الله» فإنه لا مقصود له سوى الله.

٤/١٧٩ في بحث حسن الخاتمة، فالاستشهاد في سبيل الله ضمان لحسن الخاتمة، الأمر الذي يشغل بال كل مؤمن.

٤/٢٢٧ ـ ٢٢٨ عند حديثه عن الزهد، فبذل النفس في سبيل الله يمثل أعلى درجات الزهد الحقيقي.

٤/٤٩٦ عند البحث عن حقيقة الموت، حيث تحدث عن كمال نعيم الشهداء.

وأما إنفاق المال في الجهاد، فقد ورد الحديث عنه (٣/٢٣٦) عند الحديث عن فوائد المال، حيث ذكر أنه من أمهات القربات.

وأما المرابطة في سبيل الله، فقد ورد الحديث عنها عند بحث المصنف عن أفضل الأمكنة، فذكر المساجد الثلاثة وقال: (وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلَّا «الثغور» فإن المقام بها للمرابطة فيها فيه فضل عظيم) (١/٢٤٤).

ومثال ثالث نأخذه من كتاب آداب السفر (٢/٢٥٨ وما بعدها): فقصر الصلاة وجمعها لا نجده في باب الصلاة، ولكنه في كتاب السفر حيث الحاجة إليه، خلافاً لتصنيف الفقهاء، وكذلك التعرف على القبلة وأوقات الصلاة لا نجده في باب شروط الصلاة، حيث وضعه الفقهاء ولكنه في كتاب السفر، فالمقيم في نظره لا يحتاج إلى تعرف ذلك، ولكن المسافر هو صاحب الحاجة إليه.. وكذلك المسح على الخفّين...

وهكذا جزىء بحث الجهاد وكذا بحث النفاق، كما نقلت بعض أحكام الصلاة من مكانها لمراعاة نوع آخر من الجمع والترتيب[١].



(١) من الغريب أن المصنف انتُقِد لعدم ذكره لبحث الجهاد!.

شرح الإحياء وتخريج أحاديثه

وقد قام بتخريج أحاديث «الإحياء» الإمام الحافظ العراقي: زين الدين، أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين، حافظ عصره.

ولد بمنشاة المهراني بين مصر والقاهرة سنة (٧٢٥)هـ وعني بفن الحديث، وتقدم فيه بحيث كان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة كالسبكي وغيره. وتوفي سنة (٨٠٦)هـ ورثاه تلميذه الحافظ ابن حجر.

وقد طبع هذا التخريج مع الكتاب مما سهل على القارىء مهمة الوقوف على درجة الحديث.

أما الشرح، فقد قام به العلاَّمة محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الملقب بمرتضى (١١٤٥ ـ ١٢٠٥)هـ وأصله من واسط في العراق، ومولده بالهند، وكانت نشأته في زبيد باليمن، علاَّمة باللغة والحديث والرجال والأنساب. رحل إلى الحجاز، وأقام بمصر فاشتهر فضله، وكاتبه كثير من الملوك، وأتحفوه بالهدايا.

من كتبه «تاج العروس» بشرح القاموس في عشرة مجلدات، وأما شرحه للإحياء فيقع أيضاً في عشرة مجلدات، وهو شرح وافٍ، قدم له بمقدمة ضافية، قوامها واحد وعشرون فصلاً تناول فيها ترجمة الإمام الغزالي ترجمة واسعة، وتحدث عن مشايخه ومعاصريه، كما تحدث فيها عن النقد الذي وجه إلى كتاب الإحياء وناقش ذلك.

***

مختصرات «الإحياء»

كثيرة هي مختصرات كتاب الإحياء، وهذه الكثرة دليل آخر على قناعة علماء الأمة بمكانة هذا الكتاب، فبذلوا الجهد في إيصاله إلى أيدي الناس عن طريق تصغير حجمه.

وأول من اختصره أخو المصنف الشيخ أحمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة (٥٢٠)هـ وسماه «لباب الإحياء».

ثم اختصره أحمد بن موسى الموصلي المتوفى سنة (٦٣٢)هـ.

ثم محمد بن سعيد اليمني.

كما اختصره الشيخ محمد بن علي بن جعفر العجلوني، المشهور بالبلابلي المتوفى سنة (٨٢٠)هـ وهو في نحو عشر حجمه. قال الحافظ السخاوي: وهو أحسن المختصرات.

واختصره أحد علماء الهند وسماه (عين العلم) وقد شرح هذا المختصر ملَّاعلي القاري المتوفى سنة (١٠١٤)هـ. وهو مطبوع في بيروت في مجلدين باسم (شرح عين العلم وزين الحلم) ويشتمل على عشرين باباً، وكان قد طبع قبلها في الآستانة سنة (١٢٩٢)هـ.

وقد اطلعت على نسخة مخطوطة لمختصر الشيخ أحمد الغزالي موجودة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية برقم (٤٦٦١) مصورة عن أصل لها في مكتبة تشستربتي بالرقم نفسه، وتقع في (٢٠٣) أوراق مسطرة كتابتها (١٧,٨ و٢٦,٢ سم) كتبت بخط نسخي جيد، وقد اشتمل هذا المختصر على جميع الأبواب الموجودة في كتاب الإحياء، ولكن مصنفه ــ رحمه الله ــ لم يكن له منهج في الاختصار، وكل ما قاله في مقدمته بهذا الصدد: (وأختصر ــ بعون الله تعالى

وتوفيقه ــ على وجه يحرز جميع مقاصده، ويحوي عميم فوائده).

ومن المختصرات (منهاج القاصدين) وضعه الإمام ابن الجوزي، ثم جاء الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي المتوفى سنة (٨٤٢)هـ فاختصره باسم «مختصر منهاج القاصدين»، وهو مطبوع متداول.

ومن مختصراته مختصر باسم «موعظة المؤمنين» وضعه الشيخ جمال الدين القاسمي المتوفى سنة (١٣٣٢)هـ وهو مطبوع متداول.

وكلا هذين المختصرين لم يستوفيا كتب الإحياء، البالغة أربعين كتاباً، كما أنهما أوردا الأحاديث الضعيفة.

وقام باختصاره أيضاً عبد السلام هارون تحت عنوان «تهذيب إحياء علوم الدين» وخلاصة خطته كما يقول: (استخلاص اللباب، وفي أصل الإحياء أحاديث موضوعة فتجنبت أن يكون في التهذيب شيء منها) وهو مطبوع في جزءين.

ونعتقد أن الدافع لغالب المختصرين هو تصغير حجم الكتاب، وتقريبه ليكون في متناول الأيدي، ولم يكن هناك منهج يلتزمه المختصر ذو نقاط واضحة.



الغزالي وانحرافات المتصوّفة

إن الغزالي الذي ضرب الفلسفة تلك الضربة القاصمة، والذي كشف مخازي الباطنية وفضحهم، إنما فعل ذلك دفاعاً عن الإسلام، وإذا كانت انحرافات بعض المتصوفة لا تقل خطراً عن خطر الفلاسفة والباطنية، فقد وجد أن من الواجب عليه بيان هذه الانحرافات، والتحذير منها.

وكتاب «الإحياء» مليء ببيان انحرافاتهم، والتحذير منها، وبيان الطريق المستقيم، ونشير باختصار شديد إلى أشدّ هذه الانحرافات خطراً، والتي أكد الغزالي على التحذير منها:

(١) القول بوحدة الوجود.
(٢) القول بسقوط التكليف.
(٣) الشطحات.
(٤) التفريق بين الشريعة والحقيقة.
(٥) عدم التزام طريق السلف.
(٦) البعد عن العلم.
وغير ذلك...

ومما قاله في بيان هذه الانحرافات وهو يصف ما آل إليه وضع المتصوفة:

«وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية:

أحدهما: الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا كذا، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات

من هذا الجنس.. فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره، وعظم ضرره، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة.

الثاني: من الشطح كلمات غير مفهومة، لها ظواهر رائقة، وفيها عبارة هائلة، وليس وراءها طائل.. ومنها صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة، كدأب الباطنية في التأويلات، فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم، فإن الألفاظ إذا صُرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع.. اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر، وإنما قصد أصحابها الإغراب.. وذلك مثل قول بعضهم في تأويل قوله تعالى: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أنه إشارة إلى قلبه. وقال: هو المراد بفرعون، وهو الطاغي على كل إنسان.. وأمثال ذلك، حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره.. فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد الدين على الخلق..»[(١)].

ويتحدث عن الفرق الضالة والمنحرفة فيذكر من فرق الصوفية:

«وفرقة أخرى ادّعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال.. وهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوامّ..

وفرقة أخرى، وقعت في الإباحة، وطَوَوْا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسوَّوْا بين الحلال والحرام... وبعضهم يرفعون أنفسهم درجة على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام..»[(٢)].

«وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة، حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، وبعد الوصول يستغني عن

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٣٦ ـ ٣٧، طبعة دار المعرفة.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/٤٠٥.

الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة وزعموا أنه ارتفع محلُّهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف، وإنما التكليف على عوامّ الخلق..»[1].

ويتحدث الإمام الغزالي عن الحقيقة والشريعة، فينفي أن يكون خلاف بينهما، ويقول بكلام صريح لا لُبْس فيه:

«من قال: إن الحقيقة تخالف الشريعة، أو الباطن يناقض الظاهر، فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان..»[2].

ويؤكد الإمام الغزالي على ضرورة التزام منهج السلف وطريقهم. وأنه وحده هو طريق النجاة، فيقول بعد تعداد أنواع من الانحراف:

«وإنما الناجي منها فرقة واحدة، وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه..»[3].

ويقول بعد أن بيّن أنواع العلوم:

«وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف، أو تتدلّى بحبل الغرور وتتشبّه بالخلف..»[4].

ويقول في صدد حديثه عن علماء الآخرة، وأنهم لا يعتمدون على التقليد.. «وإنما المقلَّد صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه، فيما أمر به وقاله، وإنما يقلّد الصحابة رضي الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله ﷺ..»[5].

«وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم..»[6].

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٣٠.
(٢) إحياء علوم الدين ١/ ١٠٠.
(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٣٠.
(٤) إحياء علوم الدين ١/ ٣٨.
(٥) إحياء علوم الدين ١/ ٧٨.
(٦) إحياء علوم الدين ١/ ٧٩.

ويُرجع الإمام الغزالي هذه الانحرافات وغيرها إلى الجهل الذي أصبح سمة للمتصوفة، وهو يرى أن الصوفي لا بد أن يسبق سلوكه الطريق تعلّمه وتفقُّهه. فيقول بعد أن تحدث عن الفرق الصوفية المنحرفة:

«. . وكل ذلك بناءً على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم. .»[١].

ولذا وضع كتابه «إحياء علوم الدين» لسالكي الطريق، حتى يتفقّهوا ويتعلّموا قبل أن يسلكوا الطريق، ولهذا بدأ كتابه بربع العبادات. . وذكّر بهذا عند حديثه عن ضرورة العلم لسالك الطريق فقال:

«فيحتاج إلى العلم: أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله، والعلم بما يُقربه من الله وما يُبعده عنه، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله، وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين:

فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها، وآفاتها فيتقيها.

ومن ربع العادات أسرار المعايش، وما هو مضطر إليه، فيأخذه بأدب الشرع، وما هو مستغن عنه فيعرض عنه.

ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله، من الصفات المذمومة في الخلق، ويعلم طريق علاجها.

ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة، التي لا بد وأن توضع خَلَفاً عن المذمومة بعد محوها. .»[٢].

وليس من قبيل المصادفات أن يبدأ كتاب الإحياء بموضوع العلم.

ويقدم الإمام الغزالي رأي العالم على رأي الصوفي إذا كان هناك خلاف بينهما فيقول:

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٤٠٥.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/٤١١.

«والفرق بين العالم والصوفي في ظاهر العلم يرجع إلى هذا، وهو أن الصوفي لا يتكلم إلا عن حاله، فلا جرم تختلف أجوبتهم في المسائل، والعالم هو الذي يدرك الحق على ما هو عليه، ولا ينظر إلى حال نفسه، فيكشف الحق فيه، وذلك مما لا يختلف فيه، فإن الحق واحد أبداً، والقاصر عنه كثير لا يحصى. ولذلك سئل الصوفية عن الفقر، فما من واحد إلا وأجاب بجواب غير جواب الآخر، وكل ذلك حق بالإضافة إلى حاله وليس بحق في نفسه..»[1].

ولم يكتف الغزالي بهذا الجانب من النقد، بل بيَّنَ انحرافاتهم في سلوكهم.. فتحدث عن غرورهم وريائهم وكسلهم وجهلهم وحبهم للدنيا، مما سيجده القارىء الكريم في ثنايا الكتاب..

تلك بعض انحرافات المتصوفة التي تناولها كتاب إحياء علوم الدين بالكشف والبيان وذكر العوامل والأسباب التي أدت إليها.

ومما لا شك فيه أن مسار التصوف بعد ظهور كتاب الإحياء قد مال نحو الاعتدال ذلك أن الذي يتحدث إلى المتصوفة هو إمام من أئمتهم غير متّهم عندهم.

ومما يدل على أثر الكتاب، ذلك الانتشار الذي لقيه الكتاب في حياة المؤلف، والذي لم يستطع كتاب آخر أن يحل مكانه، على الرغم من بعض المحاولات في هذا الصدد، ومنها محاولة الإمام ابن الجوزي رحمه الله.



(١) إحياء علوم الدين ٢/٢٤٢.

الإمامان: الغزالي وابن القيّم

تحدث الإمام ابن القيم في بعض كتبه عن انحرافات الصوفية، وقد التقى مع الإمام الغزالي في كل ما ذهب إليه من نقد.

والواقع أن اللقاء بين الإمامين ـ في صدد حديثهما عن التصوّف ـ لم يكن قاصراً على مجال بيان الانحرافات وحسب، بل تجاوز ذلك إلى مجالات أخرى

ـ ففي حديثهما عن ضرورة التزوّد بالعلم لسالك الطريق، يتفقان بأن من أراد سلوك هذا الطريق ينبغي أن تكون له قدم راسخة في هذا الميدان، وليس مجرد معلومات أولية.

يقول ابن القيم: «طريق آمن، أكثر السالكين في غفلة عنه، ولكن يستدعي رسوخاً في العلم، ومعرفة تامة به. .»[1].

ويقول الغزالي: «ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلماء ولكنا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم»[2].

ـ وإذا كان الغزالي يرى أن بعض المعاني لا قدرة للعبارة والكلمات على شرحها، وقد انتُقد على ذلك، فإنا نرى ابن القيم يسير في المسلك نفسه، مع علمه بما انتقد عليه الغزالي، فكثيراً ما نجده يتوقف ليقول:

«. . فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكلُّ اللسان عن وصفه، وتصطلم الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه. .»[3].

---

(١) طريق الهجرتين للإمام ابن القيم، ص ٢١٥، طبعة دار المكتبة السلفية بالقاهرة.

(٢) إحياء علوم الدين ٦/٣.

(٣) طريق الهجرتين ص ٢١.

«. . لا يناله الوصف، ولا يدخل تحت الشرح. . »[1].

وهذا ما يؤكد أن طبيعة الموضوع تقتضي أسلوباً خاصاً في الكتابة والتعبير.

ويذهب ابن القيم إلى أبعد من هذا. فيرى على من أراد سلوك هذا الطريق ومعرفة هذا العلم أن يمتلك شفافية النفس. . . فيقول:

«ومن غلظ حجابه، وكثف طبعه، وصلب عوده، فهو عن فهم هذا بمعزل. . »[2].

«ومن كثف ذهنه، وغلظ طبعه عن فهم هذا، فليضرب عنه صفحاً إلى ما هو أَوْلى به، فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع»[3]

ـ وتلتقي نظرة الإمامين في أن سالكي هذا الطريق قلة، وإن كان ابن القيم أكثر تفاؤلاً من الغزالي.

يقول ابن القيم: «. . والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم، طريق سهل قريب موصل، طريق آمن، أكثر السالكين في غفلة عنه. . »[4].

ويقول الغزالي: «. . والأمور الدينية كلها فسدت وضعفت، إلا التصوف فإنه قد انمحق بالكلية وبطل، لأن العلوم لم تندرس بعد، والعالم ـ وإن كان عالم سوء ـ فإنما فساده في سيرته لا في علمه، فيبقى عالماً غير عامل بعلمه، والعمل غير العلم، أما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى، واستحقار ما سوى

---

(١) طريق الهجرتين ص ٤٦.

(٢) طريق الهجرتين ص ٢٠٨.

(٣) طريق الهجرتين ص ٢٣.

(٤) طريق الهجرتين ص ٢١٥.

الله، وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح، ومهما فسد العمل فات الأصل..»[1].

ـ وإذا كان الإمام الغزالي يرى أن قتل القائلين ببعض الكلمات من الشطح أفضل في دين الله من إحياء عشرة[2]. فإن ابن القيم يعبر عن موقفه من الموضوع بأسلوب آخر، ومن زاوية نظر أخرى فيقول:

«فإن من لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له، وما يستحيل عليه، وإلا طرق باب الحلول إن لم يلجه، وسببه ضعف تمييزه، وقوة سلطان المحبة، واستيلاء المحبوب على قلبه بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه، وفي مثل هذه الحال يقول: سبحاني، أو: ما في الجبة إلا الله، ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن يغفر له، ويعذر لسكره وعدم تمييزه في تلك الحال..»[3].

ـ ويلتقي الإمامان في الحضّ ونصح المريد بالبعد عن التقليد..

ـ كما يلتقيان ـ من حيث الأسلوب ـ بالاعتماد على ضرب الأمثلة في إيضاح الأفكار..

وإن من يقرأ كتاب (طريق الهجرتين) لابن القيم يبدو له كم هو اللقاء كبير بين الإمامين رحمهما الله تعالى.

***

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٢٥٠.

(٢) إحياء علوم الدين ١/٣٦.

(٣) طريق الهجرتين ص ٢٣، ومدارج السالكين ٣/٤٥ و ٤٦.

أمنيات

قال العلاَّمة أبو العباس القبَّاب (٧٧٩)هـ ضمن إجابته على سؤال وجه إليه عن التصوف وطرقه:

(وما زلت أتمنى أن لو قيَّض الله تعالى رجالاً لهم حظ من العلوم وعناية بهذه الطريقة إلى تلخيص كتاب «الإحياء» فإنه كتاب جمع من العلوم المحتاج إليها ما لا يوجد في غيره، لا سيما الدواخل والشواغل المفسدة للمعاملات، ومعرفة عيوب النفس، وكيفية مداواتها، فهو في غاية المطلوب. لكنه يشوبه من الاستشهاد بالأحاديث الواهية الإسناد ما يضر بالجاهل)[١].

وقال العلامة ابن كثير (٧٧٤)هـ:

(وصنف في هذه المدة كتابه «إحياء علوم الدين»، وهو كتاب عجيب، يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف وأعمال القلوب، لكن فيه أحاديث كثيرة غرائب، ومنكرات وموضوعات)[٢].

وقال العلاَّمة الذهبي (٧٤٨)هـ :

(أما «الإحياء» ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير، لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد)[٣].

وقال الإمام ابن تيمية (٧٢٨)هـ :

(وفيه ــ الإحياء ــ أحاديث وآثار ضعيفة، بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من

---

(١) المعيار المعرب (١١/١٢٢) للونشريسي.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٢/١٧٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/٣٣٩).

أغـاليط الصوفيـة وترهـاتهم، وفيه مـع ذلك من كـلام المشايخ الصـوفيـة العـارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنّة، ومن غير ذلك من العبـادات والأدب ما هو مـوافق للكتاب والسنّـة، ما هـو أكثر ممـا يرد منـه، فلهذا اختلف فيـه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه)[1].

إن هؤلاء الأئمـة رحمهم الله تعالى كـانوا في واقـع أمـرهم يتمنـون مـا تمنـاه أبو العباس رحمه الله تعالى، ذلك أنهم جميعاً متفقون على وجود الخير الكثير الذي يحويه كتاب الإحياء، كما أنهم يرغبون لو كان خالياً من الأحاديث الضعيفة..

يقـولون هـذا مع علمهم بـوجود كتـاب (منهـاج القـاصـدين) يـومئـذٍ لـلإمـام ابن الجوزي الذي كان يرغب أن يحل كتابه محل الإحياء.. ولكن هذا لم يحدث.

وفي وقتنا هذا تتجـدد أمنية أبـي العبـاس القباب على لسـان الدكتـور يوسف القرضاوي في كتابه «الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه» الذي صدرت طبعته الأولى عام (١٤٠٨)هـ فيقول:

(وكم أتمنى أن يختصـر من الكتـاب ـ أعني الإحيـاء ـ (منتقى) يبقي على روحـه وحرارتـه، كما يبقي على فـوائده العلميـة والتربـوية ـ وهي كثيـرة ووفيـرة ـ ويحـذف التجاوزات والمبـالغات، والأحـاديث الضعيفة، أو الشـديدة الضعف على الأقل، وبهذا نقدم للثقافة الإسلامية خدمة جليلة)[2].

إن اقتراح الدكتور القرضـاوي، أخذ مكـانه من نفسي عنـدما قـرأته في كتـابه المذكور ووجـدت صدري منشـرحاً للقيـام بهذا العمـل، وإن كنت لست أهلاً لـه، ولكني استعنت الله تعالى وباشرت العمل:

إن المواصفات المطلوبة في العمل المقترح هي ما يأتي:

١ ـ حذف الأحاديث الضعيفة والموضوعة وما بني عليها من فكر.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٥٥).

(٢) كتاب «الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه» ص (١٥٨).

٢ ــ حذف أغاليط الصوفية وترهاتهم.

٣ ــ حذف المبالغات والتجاوزات.

٤ ــ الإبقاء على روح الكتاب وحرارته.

٥ ــ الإبقاء على فوائده العلمية والتربوية.

تلك هي خلاصة المواصفات التي تستفاد من كلام الأئمة المذكورين ومن كلام الدكتور القرضاوي.

وأضفت بدوري أمراً سادساً وهو:

٦ ــ الحفاظ على شكل الكتاب وهيكله العام كما وضعه مصنفه، بحيث تبقى كتبه الأربعون، فلا يلغى منها شيء ولا يدخل منها كتاب في كتاب آخر، كما فعل بعض مختصري الإحياء.

وعلى هذه الأسس بدأ عملي بالكتاب، ولم يكن الاختصار غاية أسعى إليها، إلّا في المجالات التالية:

(أ) كثيراً ما يكرر المصنف الفكرة أو القصة أو القول فأقتصر على ذكره في المكان الألصق به موضوعاً.

(ب) في الاستطرادات التي تخرج عن الموضوع قيدِ البحث.

(ج) الاقتصار على مثال واحد عندما يكثر المؤلف الأمثلة. وذلك بعد اختياره وانتقائه.

تلك هي الأسس العامة التي قام عليها العمل.

***

عمل المهذِّب في الكتاب

ليست صلتي بالكتاب جديدة، فقد سبق لي أن قرأته بعد تخرجي من الجامعة منذ أكثر من ثلاثين عاماً. وكانت لي ــ بعد ذلك ــ إليه عودات. وخاصة عندما بدأت بإعداد دراسة عن الظاهرة الجمالية في الإسلام، فالإمام الغزالي واحد من الأئمة القلائل الذين اهتموا بهذا الجانب من الفكر.

وعدت إلى الكتاب ــ هذه المرة ــ لأتعامل معه على الأسس التي ذكرتها في الفقرة السابقة، وذلك بعد دراسة واستطلاع للنقد الذي وجِّه إلى كتاب «الإحياء»، وقد قدم شارحه الزبيدي قسطاً لا بأس به منه في الجزء الأول من شرحه.

كانت طريقة العمل: أن أتناول كل كتاب ــ من كتبه الأربعين ــ على حدة، على اعتباره وحدة موضوعية. فأبدأ بقراءته قراءة استطلاعية غايتها التعرف على معالم الموضوع البارزة، وعلى ما يجب حذفه، والبحث في الأحاديث وتخريجها.

ثم تكون ــ بعد ذلك ــ القراءة الثانية، حيث أخط تحت ما أريد إثباته من البحث.

ثم تكون الخطوة الثالثة، وهي نقل النص المنتقى والمهذب، وكتابته بعد سبكه دون تدخل في تغيير نص المصنف إلَّا بحدود الضرورة كالحرف الذي يربط جملة بأخرى.

وهكذا تتابع العمل في الكتاب كله.

هذا هو الجانب الأول من العمل، أما الجانب الثاني فأستطيع تلخيصه بالأمور الآتية:

١ ــ عزو الآيات القرآنية الكريمة إلى سورها وذكر أرقامها.

٢ ــ أما مايتعلق بالأحاديث النبوية الشريفة، فقد بذلت جهدي في الاقتصار على ذكر الصحيح والحسن منها، والابتعاد عن ذكر الأحاديث الضعيفة، وقد وضعت تخريج الأحاديث في الحاشية، وما كان منها في الصحيحين أو أحدهما، لم أعول على ذكر مخرجيه من غيرهما، اكتفاء بكونه في أحد الصحيحين أو فيهما، وقد ذكرت أرقام الأحاديث فيهما بحسب ترقيم فؤاد عبد الباقي ــ رحمه الله ــ ورمزت إلى رقم البخاري بالحرف (خ) وإلى رقم مسلم بالحرف (م).

أما بقية الأحاديث، مما ليس في الصحيحين، فقد ذكرت مخرجيها، وكان جل اعتمادي على تخريج الحافظ العراقي، وغالباً ما كنت أستطلع رأي الشارح وتعقيبه على تخريج الحافظ العراقي، ورمزت بالحرف (ع) إلى ما كان من تخريج الحافظ العراقي، وبالحرف (ش) إلى ما كان من تخريج الشارح، وكذلك ما كان من التعليقات مأخوذاً عن الشرح أشير إليه بالحرف (ش).

٣ ــ ترجمت للأعلام من غير الصحابة، ترجمة موجزة، ووضعت فهرساً لهذه الأعلام في نهاية الكتاب للدلالة على مكان الترجمة فقط، ليرجع إليه القارىء إذا رغب في ذلك، ولم أترجم للصحابة رضي الله عنهم، حتى لا يتضخم الكتاب أولاً، ولأنه يكفي في تعريف الرجل أن تقول عنه صحابي، وذلك تعريف وأي تعريف.

٤ ــ وضعت بعض العناوين بين قوسين [] وهذا إشارة إلى أن العنوان ليس من وضع المؤلف، وقد لجأت إلى ذلك في حالتين:

(أ) عندما يكون البحث طويلاً، فإني أضع له العناوين الفرعية تسهيلاً على القارىء، وبياناً لعناصر الموضوع الرئيسة.

(ب) قد يذكر المصنف بعض الأفكار المهمة ضمن استطراداته، وما كان كذلك فإني أفرده في فقرة مستقلة وأضع لها عنواناً يميزها.

٥ ــ وضعت فهرساً هجائياً للموضوعات، يسهل الرجوع إلى الموضوع المطلوب في مكانه، أو أماكنه المتعددة من الكتاب.

هذا، وأسأل الله تعـالى أن يوفقنـا لما فيـه الخير، وأن يـرزقنا الإخـلاص في القول والعمل، إنه سميع مجيب.





إعداد

صالح أحمد الشامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ المُصَنِّف

أحمد الله أولاً، حمداً كثيراً متوالياً، وإن كان يتضاءل دون حق جلاله، حمد الحامدين. وأصلي وأسلم على رسله ثانياً، صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر المرسلين. وأستخيره تعالى ثالثاً فيما انبعث عزمي من تحرير كتاب في إحياء علوم الدين. وأنتدب لقطع تعجبك ـ رابعاً ـ أيها العاذل المتغالي في العذل من بين زمرة الجاحدين.. فلقد حلَّ عن لساني عقدة الصمت.. ما أنت مثابر عليه من العمى عن جلية الحق، مع اللجاج في نصرة الباطل وتحسين الجهل..

ولعمري إنه لا سبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذي عمَّ الجم الغفير، من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر، والجهل بأن الأمر جد، والآخرة مقبلة، والدنيا مدبرة والأجل قريب والسفر بعيد، والزاد طفيف، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير ردٌّ، وسلوك طريق الآخرة ـ مع كثرة الغوائل ـ من غير دليل ولا رفيق متعب.

فأدلة الطريق هم العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، وقد شغر منهم الزمان، ولم يبق إلا المترسمون، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان.. ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام، عند تهاوش الطغام..

فأما علم طريق الآخرة، وما درج عليه السلف الصالح ـ مما سماه الله سبحانه في كتابه: فقهاً، وحكمة، وعلماً، وضياء، ونوراً، وهداية ورشداً ـ فقد أصبح من بين الخلق مطوياً، وصار نسياً منسياً.

ولما كان هذا ثلماً في الدين ملماً، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً، إحياءً لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين.

وقـد أسسته على أربعـة أرباع، وهي ربـع العبادات، وربـع العادات، وربـع المهلكات، وربع المنجيات.

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب.. أذكر فيه من خفايا آدابهـا، ودقائق سننها، وأسرار معانيها، ما يضطر العالم العامل إليه، بل لا يكون من علمـاء الآخرة من لا يطلع عليه، وأكثر ذلك مما أهمل في فن الفقهيات.

وأمـا ربع العـادات فيشتمل على عشـرة كتب.. أذكر فيـه أسرار المعـامـلات الجارية بين الخلق، ودقائق سننها، وخفايا الورع في مجاريها، وهي مما لا يستغني عنه متدين.

وأما ربع المهلكات، فيشتمل على عشرة كتب.. أذكر فيه كل خلق مـذموم، وردَ القـرآن بتزكيـة النفس عنه، وتـطهير القلب منـه، وأذكر من كـل واحد من تلك الأخلاق حدَّه وحقيقته، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد، ثم طرق المعالجة..

وأما ربع المنجيات، فيشتمل على عشرة كتب.. فأذكر فيه كل خلق محمود، وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين، التي بها يتقرب العبد من رب العالمين، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها، وسببها.. وثمرتها.. وعلامتها.

ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتباً، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور:

الأول: حل ما عقدوه، وكشف ما أجملوه.

الثاني: ترتيب ما بددوه، ونظم ما فرقوه.

الثالث: إيجاز ما طولوه، وضبط ما قرروه.

الرابع: حذف ما كرروه، وإثبات ما حرروه.

الخامس: تحقيق أمور غـامضة، اعتـاصت على الأفهام، لم يتعـرض لها في الكتب أصلاً.

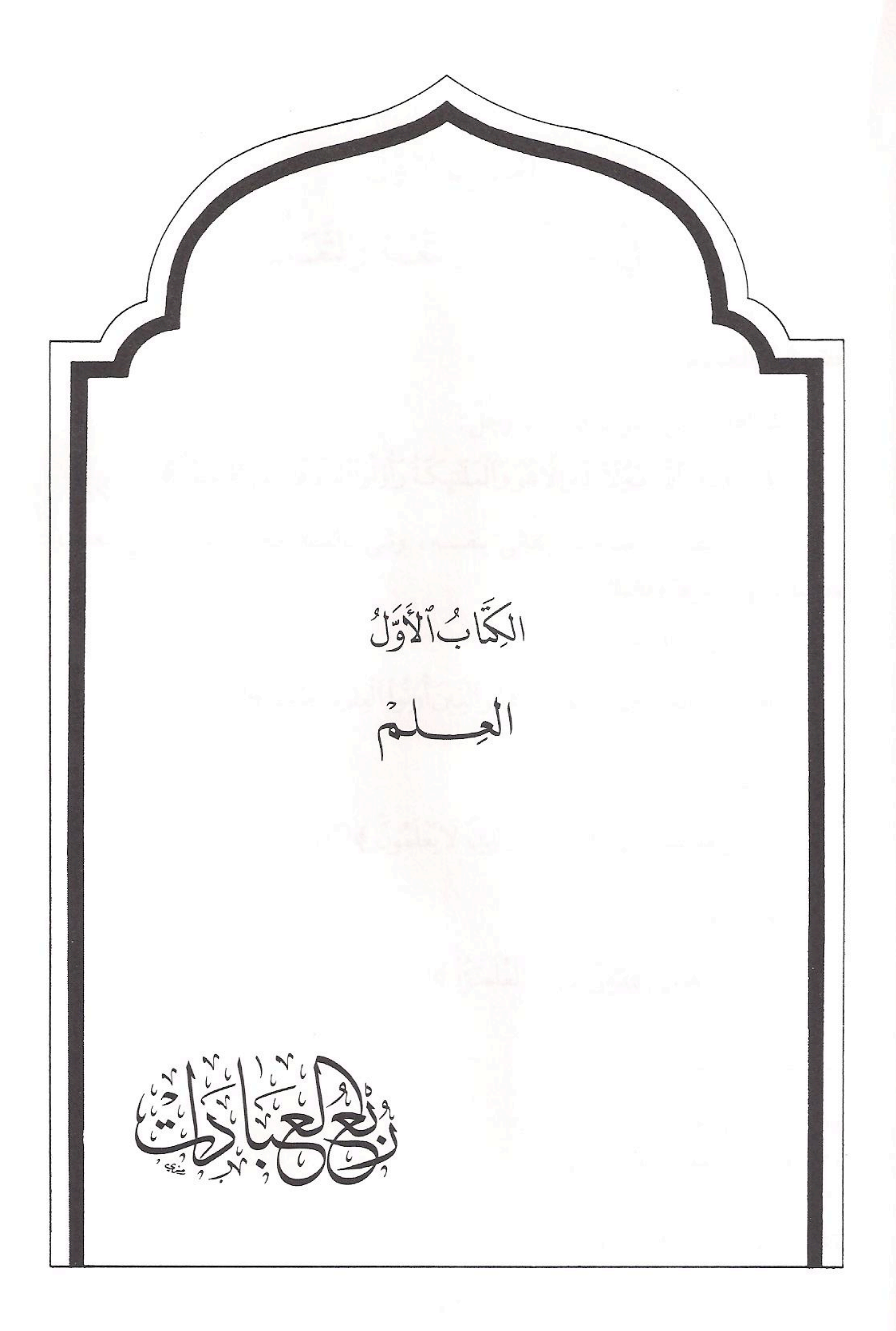
فهذه خواص هذا الكتاب، مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم.. فنسـأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد، إنه كريم جواد[1].

***

---

(١) هذا بعض خطبة المصنف، ذكرت منها ما يبين غرضه من تصنيف الكتاب، وبيان أقسامه.


ربع العبادات


الكِتَابُ ٱلأَوَّلُ
العِلْمْ
رُبْعُ العِبَادَاتِ

الباب الأول
في فضل العلم والتعليم والتعلم

فضيلة العلم:

شواهدها من القرآن قوله عزّ وجلّ:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴾[1].

فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه، وثنى بالملائكة، وثلث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً.

وقال الله تعالى:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾[2].

وقال عزّ وجلّ:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٨).

(٢) سورة المجادلة: الآية (١١).

(٣) سورة الزمر: الآية (٩).

(٤) سورة فاطر: الآية (٢٨).

وقال تعالى:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[1].

ردَّ حكمه في الوقائع إلى استنباطهم، وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله تعالى.

وأما الأخبار: فقال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[2]. وقال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[3]، ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة. وقال ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[4]، وقال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[5].

وأما الآثار[6]: فقد قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: (العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه)[7]، وقال بعض العلماء: ليت شعري، أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فاته من أدرك العلم. وقال الحسن[8] رحمه الله: (يوزن مداد العلماء بدم

---

(١) سورة النساء: الآية (٨٣).

(٢) متفق عليه (خ ٦٢، م ١٠٣٧).

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء (ع). وقال السخاوي في المقاصد: رواه أحمد وأبو داود والترمذي وآخرون (ش).

(٤) متفق عليه (خ ٣٣٨٣، م ٢٥٢٦)، دون ذكر «كمعادن الذهب والفضة» وهي في المسند (٥٢٩/٢).

(٥) قال السخاوي في المقاصد: روي عن أبي الدرداء مرفوعاً عند أصحاب السنن الأربعة (ش).

(٦) الآثار: جمع أثر، وهو من اصطلاح الفقهاء، فإنهم يستعملونه في كلام السلف. وأما الأخبار فهي جمع: خبر، وهو مرادف للحديث عند الجمهور (ش ٦٢/١).

(٧) أخرجه الخطيب في تاريخه (ش).

(٨) الحسن بن يسار البصري (٢١ ـ ١١٠)هـ، تابعي جليل، ولد زمن عمر بن الخطاب، كانت له هيبة في القلوب، وكان كبير الشأن رفيع الذكر، رأساً في العلم، وصفه الغزالي

الشهداء، فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء)[١]، وقال ابن مسعود: (عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه موت رواته، فوالذي نفسي بيده ليودَّن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء، أن يبعثهم الله علماء، لما يرون من كرامتهم، فإن أحداً لم يولد عالماً، وإنما العلم بالتعلم)[٢]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها).

فضيلة التعلم:

أما الآيات، فقوله تعالى:

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ ﴾[٣].

وقوله عزَّ وجلّ:

﴿ فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٤].

وأما الأخبار، فقوله ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة»[٥].

وأما الآثار، فقال ابن المبارك[٦] رحمه الله: (عجبت لمن لم يطلب العلم،

بقوله: (كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة).

(١) روي مرفوعاً عن أبي الدرداء، وأخرجه الشيرازي في الألقاب من حديث أنس مرفوعاً، فلعل الحسن سمعه من أنس (ش).

(٢) هكذا أورده بتمامه ابن القيم وغيره، والفقرة الأخيرة منه «إنما العلم بالتعلم» في صحيح البخاري (ش).

(٣) سورة التوبة: الآية (١٢٢).

(٤) سورة الأنبياء: الآية (٧).

(٥) رواه مسلم برقم (٢٦٩٩).

(٦) عبد الله بن المبارك (١١٨ ـ ١٨١)هـ وصفه الذهبي بـ: الإمام، شيخ الإسلام، علم زمانه، وأمير الأتقياء في وقته، قضى عمره في الأسفار تاجراً وحاجاً ومجاهداً وكانت وفاته عند انصرافه من غزو الروم.

كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة؟).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (كن عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، ولا تكن الرابع فتهلك).

وقال الشافعي[1] رحمه الله: (طلب العلم أفضل من النافلة)[2].

فضيلة التعليم:

أما الآيات، فقوله عزّ وجلّ:

﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[3].

والمراد هو التعليم والإرشاد. وقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[4].

وهو إيجاب للتعليم.

وقوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[5].

وهو تحريم للكتمان.

وقال تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[6].

---

(١) محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤)هـ صاحب المذهب المشهور وأحد الأئمة الأربعة.

(٢) أخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (ش).

(٣) سورة التوبة: الآية (١٢٢).

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٨٧).

(٥) سورة البقرة: الآية (١٤٦).

(٦) سورة النحل: الآية (١٢٥).

وأما الأخبار: فقوله ﷺ لما بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها»[1].

وقال ﷺ: «إن الله عزَّ وجلّ لا ينتزع العلم انتزاعاً من الناس بعد أن يؤتيهم إياه، ولكن يذهب بذهاب العلماء، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم، حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالاً إن سئلوا أفتوا بغير علم، فيضلون ويضلون»[2].

وقال ﷺ: «من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[3].

وقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به..»[4]، الحديث.

وأما الآثار: قال معاذ بن جبل: (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والمصبر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة، يقتدى بهم، أدلة في الخير، تقتص آثارهم، وتُرمَق أفعالهم..).

الشواهد العقلية:

اعلم أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته، والفضيلة مأخوذة من الفضل، وهي الزيادة؛ فإذا تشارك شيئان في أمر واختص أحدهما

---

(١) أخرجه أحمد من حديث معاذ، وهو في الصحيحين من حديث سهل بن سعد أنه قال ذلك لعلي بن أبي طالب (ع)، (البخاري برقم ٤٢١٠، ومسلم برقم ٢٤٠٦) بلفظ: «خير لك من أن يكون لك حمر النعم».

(٢) متفق عليه (خ ١٠٠، م ٢٦٧٣) بلفظ «فضلوا وأضلوا» وفي (ع) أخرجه الستة إلا أبا داود.

(٣) رواه أبو داود والترمذي ـ وقال: حديث حسن ـ وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه (ع).

(٤) أخرجه مسلم برقم (١٦٣١) وأبو داود والترمذي والنسائي (ش).

بمزيد، يقال: فضله، وله الفضل عليه، مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء.

فإذا فهمت هذا، لم يخفَ عليك أن العلم فضيلة ـ إن أخذته ـ بالإضافة إلى سائر الأوصاف، والعلم فضيلة في ذاته، وعلى الإطلاق من غير إضافة، فإنه وصف كمال الله سبحانه، وبه شرف الملائكة والأنبياء.

واعلم أن الشيء النفيس المرغوب فيه، ينقسم إلى: ما يطلب لغيره، وإلى ما يطلب لذاته، وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعاً.

فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره.

والمطلوب لغيره: الدراهم والدنانير، فإنهما حجران لا منفعة لهما، ولولا أن الله سبحانه يسر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة.

والذي يطلب لذاته: فالسعادة في الآخرة، ولذة النظر لوجه الله تعالى.

والذي يطلب لذاته ولغيره: فكسلامة البدن، فإن سلامة الرجل مثلاً مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم، ومطلوبة للمشي بها، والتوصل إلى المآرب والحاجات.

وبهذا الاعتبار، إذا نظرت إلى العلم، رأيته لذيذاً في نفسه، فيكون مطلوباً لذاته، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا به.

وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي، السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال.

هذه فضيلة العلم مطلقاً، ثم تختلف العلوم وتتفاوت فضائلها بتفاوتها. وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه، فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلباً للأفضل، فكان تعليمه إفادة للأفضل.

***

البَابُ الثَانِي
فِي ٱلعِلْمِ ٱلمَحْمُودِ وَٱلمَذْمُومِ

وفيه بيان ما هو فرض عين، وما هو فرض كفاية، وتفضيل علم الآخرة.

بيان العلم الذي هو فرض عين:

اختلف الناس في العلم الذي هو فرض عين على كل مسلم، فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة، ولا نطيل بنقل التفصيل، ولكن حاصله: أن كل فريق نزَّل الوجوب على العلم الذي هو بصدده.

فقال المتكلمون: هو علم الكلام، وقال الفقهاء: هو علم الفقه، وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة..

والذي ينبغي أن يقطع به المحصِّل، ولا يستريب فيه، ما سنذكره: وهو أن العلم ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة، والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العلم بها ثلاثة: اعتقاد، وفعل، وترك.

فإذا بلغ الرجل العاقل ضحوة، فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما. فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت الذي هو فرض عين عليه، فإن عاش إلى وقت الظهر، فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة.. وهكذا التدرج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين.

وأما التروك: فيجب تعلم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال. وذلك يختلف بحال الشخص، إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر.

وأما الاعتقادات: فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادتين، فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك..

وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين، ومعناه: العلم بكيفية العمل الواجب، فمن علم العلم الواجب، ووقت وجوبه، فقد علم العلم الذي هو فرض عين.

بيان العلم الذي هو فرض كفاية:

العلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى: شرعية وغير شرعية.

وأعني بالشرعية: ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة.

والعلوم التي ليست بشرعية، تنقسم إلى ما هو محمود، وإلى ما هو مذموم، وإلى ما هو مباح:

ـ فالمحمود: ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا، كالطب، والحساب، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية، وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة.

أما فرض الكفاية: فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب؛ فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى، وسقط الفرض عن الآخرين.

فلا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات، كالفلاحة والحياكة والسياسة، بل الحجامة والخياطة، فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله، وأعد الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله.

وأما ما يعد فضيلة لا فريضة، فالتعمق في دقـائق الحساب، وحقـائق الطب، وغير ذلك مما يستغنى عنه، ولكنه يفيد زيادة قوة القدر المحتاج إليه.

ـ وأما المذموم: فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتلبيسات.

ـ وأما المباح منه، فالعلم بـالأشعار التي لا سخف فيهـا، وتواريـخ الأخبار، وما يجري مجراه.

[العلـوم الشرعيـة]:

أما العلوم الشرعيـة، وهي المقصودة بـالبيان، فهي محمـودة كلها، ولكن قـد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية وتكون مذمومة، فتنقسم إلى: المحمودة والمذمومة.

أما المحمودة، فلها أصول وفروع، ومقدمات ومتممات، وهي أربعة أضرب:

(الضـرب الأول): الأصـول: وهي أربعـة: كتـاب الله عـزَّ وجـلّ، وسنـة رسول الله ﷺ، وإجماع الأمة، وآثار الصحابة.

والإجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة، فإنه أصل في الدرجة الثالثة.

وكـذا الأثر، فـإنه أيضـاً يدل على السنـة، لأن الصحابـة رضي الله عنهم قـد شـاهدوا الـوحي والتنزيـل وأدركوا بقـرائن الأحوال مـا غاب عن غيـرهم، فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم.

(الضـرب الثـاني): الفـروع: وهـو مـا فهم من هـذه الأصـول، لا بمـوجب ألفاظها، بل بمعان تنبهت لها العقول، فاتسع بسببها الفهم، كما فهم من قوله ﷺ: «لا يقضي القاضي وهو غضبان»[1]، أنه لا يقضي إذا كان خائفاً، أو جائعاً..

وهذا على ضربين:

أحدهما: يتعلق بمصالح الدنيا، وتحويه كتب الفقـه، والمتكفل بـه الفقهاء، وهم علماء الدنيا.

---

(١) متفق عليه (خ ٧١٥٨، م ١٧١٧).

والثاني: ما يتعلق بمصالح الآخرة، وهو علم أحوال القلب، وأخلاقه المحمودة والمذمومة.

(الضرب الثالث): المقدمات: وهي التي تجري منه مجرى الآلات، كعلم اللغة والنحو، فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ. وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما.

(الضرب الرابع): المتممات: وذلك في علم القرآن، فإنه ينقسم:

- إلى ما يتعلق باللفظ، كتعلم القراءات ومخارج الحروف.
- إلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير، فإن اعتماده أيضاً على النقل.
- وإلى ما يتعلق بأحكامه، كمعرفة الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص.. وهو العلم الذي يسمى «أصول الفقه»، ويتناول السنة أيضاً.

وأما المتممات في الآثار والأخبار: فالعلم بالرجال، وأسمائهم وأنسابهم، وأسماء الصحابة وصفاتهم، والعلم بالعدالة في الرواة..

فهذه هي العلوم الشرعية، وكلها محمودة، بل كلها من فروض الكفايات.

[الفقه من علوم الدنيا؟!]:

فإن قلت: لمَ ألحقت الفقه بعلم الدنيا؟

فاعلم: أن الله خلق الدنيا زاداً للمعاد، ليتناول منها ما يصلح للتزود، فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات، وتعطل الفقهاء، ولكنهم تناولوها بالشهوات، فتولدت منها الخصومات، فمسَّت الحاجة إلى سلطان يسوسهم، واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة، وطريق التوسط بين الخلق، إذا تنازعوا بحكم الشهوات. فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم، لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا.

ولعمري إنه متعلق أيضاً بالدين، لكن لا بنفسه، بل بواسطة الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا يتم الدين إلا بالدنيا.

فإن قلت: هذا إن استقام لك في الحدود والغرامات وفصل الخصومات، فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربع العبادات، من الصيام والصلاة..؟

فاعلم: أن ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة: الإسلام، والصلاة والزكاة، والحلال والحرام. فإذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها، علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة، وإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر:

ـ أما الإسلام، فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد، وفي شروطه، وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان، أما القلب فخارج عن ولاية الفقيه، لعزل رسول الله ﷺ أرباب السيوف عنه، حيث قال: «هلا شققت عن قلبه؟»[1]

وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله، وذلك في الدنيا، ولذلك قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا «لا إله إلا الله»، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم»[2] جعل أثر ذلك في الدم والمال. وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال، بل أنوار القلوب وإخلاصها، وليس ذلك من الفقه.

ـ وأما الصلاة، فالفقيه يفتي بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال، مع ظاهر الشروط، وإن كان غافلاً في جميع صلاته من أولها إلى آخرها، مشغولاً بالتفكير في حساب معاملاته في السوق، وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة.. فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة، وبه ينفع العمل الظاهر، فلا يتعرض له الفقيه.

ـ وأما الزكاة، فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان.

ـ وأما الحلال والحرام، فالورع عن الحرام من الدين، ولكن الورع له أربع مراتب:

الأولى: الورع الذي يشترط في عدالة الشهادة.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أسامة بن زيد برقم (٩٦).

(٢) أخرجه الستة وهذا لفظ الترمذي (ش).

الثانية: ورع الصالحين، وهو التوقي من الشبهات. قال ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[1].

الثالثة: ورع المتقين، وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أداؤه إلى الحرام، قال ﷺ: «لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافةً مما به بأس»[2].

الرابعة: ورع الصديقين، وهو الإعراض عما سوى الله تعالى، خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله عزَّ وجلّ.

فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه، إلا الدرجة الأولى، وهي ورع الشهود والقضاة، وما يقدح في العدالة.

[علم طريق الآخرة]:

فإن قلت: فصِّل لي علم طريق الآخرة..

فاعلم أنه قسمان: علم مكاشفة، وعلم معاملة.

فالقسم الأول: علم المكاشفة، وهو علم الباطن، وذلك غاية العلوم، وهو علم الصديقين والمقربين..

وهو: عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، بالكف عن الشهوات، والاقتداء بالأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، في جميع أحوالهم.

وأما القسم الثاني، وهو علم المعاملة، فهو علم أحوال القلب..

ـ أما ما يحمد منها فكالصبر، والخوف، والرجاء..، فمعرفة حقائق هذه الأحوال، وحدودها، وأسبابها التي بها تكتسب، وثمرتها وعلاماتها، ومعالجة ما ضعف منها حتى يقوى، وما زال حتى يعود، من علم الآخرة.

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، قاله العراقي (ش).

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه، والحاكم وصححه (ع)، وكذا البيهقي (ش).

ـ وأما ما يذم: فخوف الفقر، وسخط المقدور، والغل، والحقد.. فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها، وأسبابها وثمراتها، وعلاجها، هو علم الآخرة، وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة.

[ترتيب فروض الكفاية]:

لو سُئل فقيه عن الإخلاص مثلاً، أو عن التوكل.. لتوقف فيه، مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في آخرته، ولو سألته عن اللعان والظهار.. لسرد عليك مجلدات..

وإذا روجع فيه قال: اشتغلت به لأنه علم الدين، فرض الكفاية.

والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدم عليه فرض العين، بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات.

فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون[1] على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات، والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع.

فليت شعري؟! كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة، وإهمال ما لا قائم به[2]؟!

---

(١) أي يتنافسون، ويترامون بأنفسهم (ش).

(٢) انظر تفصيل ذلك في إحياء علوم الدين (٣/٤٠٣ ـ ٤٠٤).

البَابُ الثَّالِثُ

فِيمَا يعدُّهُ العَامَّةُ مِنَ العُلُومِ المَحْمُودَةِ وَلَيْسَ مِنْهَا

بيان علة ذم العلم المذموم:

اعلم أن العلم لا يذم لعينه، وإنما يذم في حق العباد، لأحد أسباب ثلاثة:

(الأول): أن يكون مؤدياً إلى ضرر ما، إما لصاحبه أو لغيره، كما يذم علم السحر والطلسمات.

(الثاني): أن يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر، كعلم النجوم، فإنه في نفسه غير مذموم لذاته، إذ هو قسمان:

قسم حسابي، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب، إذ قال عزّ وجلّ:

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[1].

والثاني: الأحكام، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب، وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض، وهو معرفة لمجاري سنة الله تعالى وعادته في خلقه، ولكن قد ذمه الشرع وزجر عنه من ثلاثة أوجه:

ـ أحدها: أنه مضر بأكثر الخلق، فإنه إذا ألقي إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة، ويعظم وقعها في

---

(١) سورة الرحمن: الآية (٥).

القلوب، وينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب، فإن الضعيف يقصر نظره على الوسائط، والعالم الراسخ هو الذي يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى.

ـ ثانيها: أن أحكام النجوم تخمين محض، ليس يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقيناً ولا ظناً، فالحكم به حكم بجهل.

ـ وثالثها: أنه لا فائدة فيه، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يغني، وتضييع العمر الذي هو أنفس بضاعة الإنسان في غير فائدة، وذلك غاية الخسران.

(السبب الثالث): الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم، فهو مذموم في حقه، كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها، وخفيها قبل جليها، وكالبحث عن الأسرار الإلهية. فيجب كف الناس عن البحث عنها، وردهم إلى ما نطق به الشرع، ففي ذلك مقنع للموفق.

بيان ما بدِّل من ألفاظ العلوم:

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة، وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول، وهي خمسة ألفاظ: الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة. فهذه أسام محمودة، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة.

(اللفظ الأول): الفقه:

فقد تصرفوا فيه بالتخصيص ـ لا بالنقل والتحويل ـ إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوي، والوقوف على دقائق عللها.. فمن كان أشد تعمقاً فيها، وأكثر اشتغالاً بها، يقال له: الأفقه.

ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفاق النفوس، ومفسدات الأعمال، ويدلك عليه قوله عزَّ وجلّ:

﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾[1].

وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه، دون تفريعات الطلاق واللعان . . فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب، وتنزع الخشية منه، كما نشاهد الآن من المتجردين له. وقال تعالى:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[2].

وأراد به معاني الإيمان، دون الفتاوى.

وقد سأل فرقد السبخي[3] الحسنَ عن شيء، فأجابه، فقال: إن الفقهاء يخالفونك؛ فقال الحسن رحمه الله: (ثكلتك أمك فريقد، وهل رأيت فقيهاً بعينك؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكافُّ نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم)[4]. ولم يقل في جميع ذلك: الحافظ لفروع الفتاوى.

ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولاً للفتاوى فى الأحكام الظاهرة، ولكن كان بطريق العموم والشمول، أو بطريق الاستتباع، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر.

(اللفظ الثاني): العلم:

وقد كان يطلق على العلم بالله تعالى، وبآياته، وبأفعاله في عباده، وخلقه،

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٢٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٧٩).

(٣) فرقد بن يعقوب السبخي، نسبة إلى السبخة، موضع بالبصرة، وهو البصري الحافظ الزاهد، روى عن أنس، وضعفوه، وثقه ابن معين، يقال: شغله التعبد عن حفظ الحديث. مات بالبصرة سنة (١٣١)هـ (ش).

(٤) أورد هذه القصة هكذا صاحب القوت، وقال: جمعنا قوله هذا من روايات مختلفة عنه (ش).

حتى إنه لما مات عمر ـ رضي الله عنه ـ قال ابن مسعود رحمه الله: (لقد مات تسعة أعشار العلم)[1]، فعرفه بالألف واللام، ثم فسره: العلم بالله سبحانه وتعالى.

وقد تصرفوا فيه ـ أيضاً ـ بالتخصيص، حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها. ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء، ولا يعدونه في زمرة أهل العلم.

(اللفظ الثالث): التوحيد:

وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة، والقدرة على التشدق فيها، بتكثير الأسئلة، وإثارة الشبهات. حتى لقب طوائف منهم أنفسهم: بأهل العدل والتوحيد، وسمي المتكلمون: العلماء بالتوحيد.

مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول، بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح باباً في الجدل والمماراة. فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة، التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع، فلقد كان ذلك معلوماً للكل، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله.

وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر، لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به، وهو: أن يرى الأمور كلها من الله عزَّ وجلّ، رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جلّ جلاله.. وأن يعبده عبادة يفرده بها، فلا يعبد غيره.

ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده، قال تعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[2].

---

(١) أخرجه أبو خيثمة في كتاب العلم فقال: حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم، قال: قال عبد الله.

(٢) سورة الجاثية: الآية (٢٣).

(اللفظ الرابع): الذكر والتذكير:

فقد قال الله تعالى:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وقد ورد في الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة، كقوله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر»[2]، وفي الحديث: «إن لله تعالى ملائكة سياحين في الدنيا سوى ملائكة الخلق، إذا رأوا مجالس الذكر ينادي بعضهم بعضاً: ألا هلموا إلى بغيتكم، فيأتونهم، ويحفون بهم ويستمعون. ألا فاذكروا الله. وذكروا أنفسكم»[3] فنقل ذلك إلى ما نرى أكثر الوعاظ في هذا الزمان يواظبون عليه، وهو: القصص والأشعار والشطح والطامات.

أما القصص فهي بدعة، وقد ورد نهي السلف عن الجلوس إلى القصاص، وقالوا: لم يكن ذلك في زمن رسول الله ﷺ[4] ولا في زمن أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما، حتى ظهرت الفتنة وظهر القصاص.

وأما الأشعار، فتكثيرها في المواعظ مذموم، وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق بالتواصف في العشق، وجمال المعشوق، وروح الوصال، وألم الفراق، والمجلس لا يحوي إلا أجلاف العوام، وبواطنهم مشحونة بالشهوات.. وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد.

وأما الشطح، فنعني به من الكلام ما أحدثه بعض الصوفية، من الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية

---

(١) سورة الذاريات: الآية (٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسنه (ع)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبيهقي في الشعب عن أنس (ش).

(٣) متفق عليه، دون قوله «في الدنيا» مع اختلاف يسير في اللفظ (خ ٦٤٠٨، م ٢٦٨٩).

(٤) رواه ابن ماجه من حديث عمر بإسناد حسن.

والمشافهة بالخطاب، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج[1]، الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس.. فهذا مما قد استطار في البلاد شرره.. حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة.

وأما الطامات، فيدخلها ما ذكرناه في الشطح، وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة، فهذا أيضاً حرام، وضرره عظيم، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها، بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

وهذا أيضاً من البدع الشائعة، العظيمة الضرر، وإنما قصد أصحابها الإغراب، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له. وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها، وتنزيلها على رأيهم.

ومثال تأويل أهل الطامات: قول بعضهم في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[2].

أنه إشارة إلى قلبه، وقال: هو المراد بفرعون، وهو الطاغي على كل إنسان.

وفي قوله ﷺ: «تسحروا فإن في السحور بركة»[3]، أراد به الاستغفار في الأسحار..

فكل ذلك حرام وضلالة، وإفساد للدين على الخلق، ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين.

---

(١) الحسين بن منصور الحلاج. صحب الجنيد والنوري وغيرهما، اختلف الناس في شأنه وأفتى كثير من العلماء بإباحة دمه، وذلك بسبب ادعاء حلول الإلٓهية فيه، فسجن زمن المقتدر وقتل عام (٣٠٩)هـ.

(٢) سورة طه: الآية (٢٤).

(٣) متفق عليه (خ ١٩٢٣، م ١٠٩٥).

(اللفظ الخامس): وهو الحكمة:

فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم، والحكمة هي التي أثنى الله عزَّ وجلّ عليها فقال:

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا ﴾[1].

* * *

فقد عرفت العلم المحمود والمذموم، ومثار الالتباس، وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث. وقد صح قول رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء، فقيل: ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنتي، والذين يحيون ما أماتوه من سنتي»[2].

القدر المحمود من العلوم:

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام: قسم هو مذموم قليله وكثيره، وقسم هو محمود قليله وكثيره، وقسم يحمد منه مقدار الكفاية، ولا يحمد الفاضل عليه ولا الاستقصاء فيه.

فالقسم المذموم منه قليله وكثيره، هو ما لا فائدة فيه في دين ولا دنيا، إذ فيه ضرر يغلب نفعه، كعلم السحر والطلسمات والنجوم.

وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء، فهو العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وسنته في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا العلم مطلوب لذاته، وللتوصل به إلى سعادة الآخرة.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٦٩).

(٢) القسم الأول أخرجه مسلم برقم (١٤٥)، وهو بتمامه عند الترمذي.

وأمـا العلوم التي لا يحمـد منهـا إلا مقـدار مخصـوص، فهي العلوم التي أوردناها في فروض الكفايات، فإن في كل علم منها اقتصاراً، وهو الأقل، واقتصاداً وهو الوسط، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لا مرد له إلى آخر العمر.

فكن أحـد رجلين: إما مشغـولاً بنفسك، وإمـا متفرغـاً لغيرك بعـد الفراغ من نفسك، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك.

فـإن كنت المشغول بنفسـك فلا تشتغـل إلا بـالعلم الـذي هـو فـرض عليـك بحسب مـا يقتضيه حـالك، ومـا يتعلق منـه بـالأعمـال الـظاهـرة، من تعلم الصـلاة والـطهارة.. وإنمـا الأهم الذي أهمله الكـل، علم صفات القلب ومـا يحمـد منهـا وما يذم.

فلا تشتغل بفـروض الكفايـة، لاسيما وفي زمـرة الخلق من قد قـام بها، فـإن مهلك نفسه فيما به صلاح غيره سفيه، وإن تفـرغت من نفسك وتـطهيرهـا، وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنـه ــ وما أبعـد ذلك منـك ــ فاشتغـل بفروض الكفـايات وراع التدريج فيها.

***

الباب الرابع

سبب الإقبال على علم الخلاف

اعلم أن الخلافة بعد رسول الله ﷺ تـولاها الخلفـاء الراشـدون، وكانـوا أئمة علماء بالله تعالى، فقهاء في أحكامه، وكانوا مستقلين بالفتوى، فكـانوا لا يستعينـون بـالفقهاء، إلاَّ نـادراً في وقائـع لا يستغنى فيها عن المشـاورة، فتفـرغ العلمـاء لعلم الآخـرة، وكانـوا يتدافعـون الفتـاوى ومـا يتعلق بـأحكـام الخلق من الـدنيـا، وأقبلوا على الله تعالى . .

فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقـوام تولـوها بغيـر استحقاق، اضـطروا إلى الاستعـانة بـالفقهاء، وإلى استصحـابهم. وكان قـد بقي من علماء التـابعين من هو مستمر على الطراز الأول، فكانوا إذا طُلبـوا هربـوا وأعرضـوا، فاضـطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء.

فرأى أهل تلك الأعصار عزَّ العلمـاء، وإقبال الـولاة عليهم، فاشـرأبوا لـطلب العلم توصلاً إلى نيـل العز ودرك الجـاه من قبل الـولاة، فأكبـوا على علم الفتاوى، وعرضوا أنفسهم على الولاة، فأصبح الفقهاء ــ بعـد أن كانـوا مطلوبين ــ طـالبين، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم.

وقـد كان أكثـر الإقبال في تلك الأعصـار على علم الفتـاوى والأقضيـة لشـدة الحاجة إليها في الولايات. ثم ظهر بعدهم من الأمراء من يسمع مقالات النـاس في قواعد العقائد، ومالت نفسه إلى سمـاع الحجج فيهـا، فعُلمت رغبته إلى المنـاظرة والمجادلة في الكلام فأكب الناس على علم الكلام، وأكثروا فيه التصانيف.

ثم ظهر بعد ذلـك ــ من الصدور ــ من لم يستصـوب الخوض في الكـلام . . لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة، ومالت نفسه إلى المناظـرة في

الفقه، وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص، فترك الناس الكلام، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى.

فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم.

[نصيحة]:

أما الخلافيات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة، وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها في السلف، فإياك أن تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السم القاتل، فإنها الداء العضال، الذي رد الفقهاء إلى طلب المنافسة والمباهاة.

وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال: الناس أعداء ما جهلوا.

فلا تظن ذلك، فعلى الخبير سقطت، فاقبل هذه النصيحة ممن ضيّع العمر فيه زماناً، وزاد فيه على الأولين تصنيفاً وتحقيقاً وجدلاً وبياناً، ثم ألهمه الله رشده، وأطلعه على عيبه، فهجره واشتغل بنفسه. وفي الحديث: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلَّا أوتوا الجدل»[١]. والله أعلم[٢].



---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح (ع).

(٢) هذه الفقرة وردت في نهاية الباب الثالث، ووضعتها هنا لمناسبتها للموضوع.

البَابُ الخَامِسُ
فِي آدَابِ المُتَعَلِّمِ وَالمُعَلِّمِ

آداب المتعلم:

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة:

الوظيفة الأولى: تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف، إذ العلم عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى؛ وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلَّا بتطهير الظاهر، عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن، وعمارة القلب بالعلم إلَّا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق.

الوظيفة الثانية: أن يقلل علاقته من الاشتغال بالدنيا، فإن العلائق شاغلة وصارفة، قال تعالى:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[1].

ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق، والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة، كجدول تفرق ماؤه، فنشفت الأرض بعضه، واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزروع.

الوظيفة الثالثة: أن لا يتكبر على العلم، ولا يتأمر على معلم، بل يلقي إليه زمام أمره، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب الحاذق، وينبغي أن

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٤).

يتواضع لمعلمه، ويطلب الثواب والشرف بخدمته. قال الشعبي[1]: صلّى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد: خلِّ عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: (هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء)[2]..

فلا ينال العلم إلّا بالتواضع وإلقاء السمع، قال تعالى:
﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[3].

ومعنى كونه ذا قلب: أن يكون قابلاً للعلم فهماً، ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل ما ألقي إليه بحسن الإصغاء.

الوظيفة الرابعة: أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه، ويفتر رأيه.. بل ينبغي أن يتقن الطريق الواحدة المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب..

الوظيفة الخامسة: أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة، بل يراعي الترتيب، ويبتدىء بالأهم، فإن العمر لا يتّسع لجميع العلوم، فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه، ويصرف قوته إلى استكمال أشرف العلوم، وهو علم الآخرة.

الوظيفة السادسة: أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً، وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج.

---

(١) الشعبي: عامر بن شراحيل، تابعي جليل، يضرب المثل بحفظه وقوة ذاكرته. قال مكحول: ما رأيت أفقه منه، أخرج حديثه الجماعة، توفي سنة (١٠٣)هـ.

(٢) أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل، إلّا أنهم قالوا: (هكذا نفعل)، قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم (ع).

(٣) سورة ق: الآية (٣٧).

الوظيفة السابعة: أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم، وأن ذلك يراد به شيئان: أحدهما: شرف الثمرة، والثاني: وثاقة الدليل وقوته.

وذلك: كعلم الدين، وعلم الطب، فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية، وثمرة الآخر الحياة الفانية، فيكون علم الدين أشرف. ومثل علم الحساب، وعلم النجوم، فإن علم الحساب أشرف، لوثاقة أدلته وقوتها. وإن نسب الحساب إلى الطب، كان الطب أشرف باعتبار ثمرته، والحساب أشرف باعتبار أدلته، وملاحظة الثمرة أولى، ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين.

وبهذا تبين أن أشرف العلوم، العلم بالله عزَّ وجلَّ وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم.

الوظيفة الثامنة: أن يكون قصد المتعلم في الحال: تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي المآل: القرب من الله سبحانه، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه، ومماراة السفهاء، ومباهاة الأقران.

الوظيفة التاسعة: أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد، كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد، والمهم على غيره.

ومعنى المهم: ما يهمك، ولا يهمك إلاَّ شأنك في الدنيا والآخرة. وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة، فالأهم ما يبقى أبد الآباد، وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً، والبدن مركباً، والأعمال سعياً إلى المقصد، ولا مقصد إلاَّ لقاء الله تعالى، ففيه النعيم كله.

* * *

فتأمل هذا، واقبل النصيحة مجاناً، ممن قام عليه ذلك غالياً، ولم يصل إليه إلاَّ بعد جهد جهيد، وجراءة تامة على مباينة الخلق ـ العامة والخاصة ـ في النزوع عن تقليدهم بمجرد الشهوة، فهذا القدر كاف في وظائف المتعلم.

وظائف المعلم:

من اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فليحفظ آدابه ووظائفه:

الوظيفة الأولى: الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين.

الوظيفة الثانية: أن يقتدي بصاحب الشرع ﷺ فلا يطلب على إفادة العلم أجراً، ولا يقصد به جزاءً ولا شكراً، بل يعلم لوجه الله تعالى، وطلباً للتقرب إليه، ولا يرى لنفسه منة عليهم، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها.

الوظيفة الثالثة: أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً، بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى، دون الرياسة والمباهاة.

الوظيفة الرابعة: وهي من دقائق صناعة التعليم: أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق، بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار.

الوظيفة الخامسة: أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه، كمعلم اللغة إذ من عادته تقبيح علم الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث.. بل ينبغي للمتكفل بعلم واحد أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره.

الوظيفة السادسة: أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره. قال ابن مسعود: (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلاَّ كان لبعضهم فتنة)[1].

الوظيفة السابعة: أن يكون المعلم عاملاً بعلمه، فلا يكذب قوله فعلُه، لأن العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار، وأرباب الأبصار أكثر، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد، وسخر الناس به، قال تعالى:



﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾[2].

***

(١) أخرجه مسلم في المقدمة برقم (٥).

(٢) سورة البقرة: الآية (٤٤).

الباب السادس

علامات علماء الآخرة وعلماء السوء

[علامات علماء الدنيا]:

قد وردت في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة. فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة. ونعني بعلماء الدنيا علماء السوء، الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا، والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها.

قال ﷺ: «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولتماروا به السفهاء، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم، فمن فعل ذلك فهو في النار»[1]. وقال ﷺ: «لأنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال، فقيل: وما ذلك؟ فقال: من الأئمة المضلين»[2].

وقال عيسى عليه السلام: (إلى متى تصفون الطريق للمدلجين، وأنتم مقيمون مع المتحيّرين؟!).

وقال الحسن: (لا تكن ممن يجمع علم العلماء، وطرائف الحكماء، ويجري في العمل مجرى السفهاء).

وقال ابن المبارك: (لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل).

---

(١) أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح (ع)، وأخرجه كذلك الحاكم وابن حبان والضياء المقدسي في المختارة (ش).

(٢) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي ذر بإسناد جيد (ع)، وأخرج مسلم وأصحاب السنن عن النواس بن سمعان وفيه: «غير الدجال أخوفني عليكم» (ش).

وقال أسامة بن زيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالعالم يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه[1]، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيطيف به أهل النار فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه، وأنهى عن الشر وآتيه»[2].

فهذه الأخبار تبين أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أخس حالاً وأشد عذاباً من الجاهل.

[علامات علماء الآخرة]:

إن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة. ولهم علامات: .

● **فمنها**: أن لا يطلب الدنيا بعلمه، فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها، وكدورتها وانصرامها، وعظمَ الآخرة ودوامها، وصفاء نعيمها، وجلالة ملكها، ويعلم أنهما متضادتان، وأنهما كالضرتين، مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وأنهما ككفتي الميزان، مهما رجحت إحداهما خفَّت الأخرى.

ومن علم هذا ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان، قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته، فكيف يعدُّ من حزب العلماء من هذه درجته؟! ولذلك قال الحسن رحمه الله: (عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة)، وقال عمر رضي الله عنه: (إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم، فإن كل محب يخوض فيما أحب).

وكان يحيى بن معاذ الرازي[3] رحمه الله يقول لعلماء الدنيا: (يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأثوابكم طاهرية[4]، وأخفافكم

---

(١) أي أمعاؤه.

(٢) متفق عليه بلفظ (الرجل) بدل (العالم). (خ ٣٢٦٧، م ٢٩٨٩).

(٣) أبو زكريا يحيى بن معاذ، من أهل الري، واعظ زاهد، كان أوحد وقته في زمانه، أقام ببلخ مدة ثم عاد إلى نيسابور، وتوفي بها سنة (٢٥٨)هـ.

(٤) منسوبة إلى عبد الله بن طاهر بن الحسين الوزير، وكان يتغالى في الثياب (ش).

جالوتية[1]، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآتمكم[2] جاهلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين الشريعة المحمدية؟!).

قال الشاعر:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب؟

وقال سهل[3] رحمه الله: العلم كله دنيا، والآخرة منه العمل به، والعمل كله هباء إلَّا الإخلاص. وقال: الناس كلهم موتى إلَّا العلماء، والعلماء سكارى إلَّا العاملين، والعاملون كلهم مغرورون إلَّا المخلصين، والمخلص على وجل حتى يدري ماذا يختم له به.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[4].

● **ومنها**: أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة، المرغب في الطاعات، مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها، ويكثر فيها الجدال والقيل والقال.

وينبغي أن يكون المتعلم من جنس ما روي عن حاتم الأصم[5] ـ تلميذ شقيق البَلْخي[6] ـ أنه قال له شقيق: منذ كم صحبتني؟

قال حاتم: منذ ثلاث وثلاثين سنة.

---

(١) أي مزينة كأخفاف جالوت، وكان جباراً من الجبابرة (ش).

(٢) أي من أفعال الجاهلية، وفي بعض النسخ: موائدكم (ش).

(٣) أبو محمد سهل بن عبد الله التستري، سكن البصرة، صحب ذا النون المصري بمكة سنة خروجه للحج، وهو أحد أئمة الصوفية، وله كلام كثير في الإخلاص والرياضات، توفي سنة (٢٨٣)هـ.

(٤) أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد (ع).

(٥) حاتم بن علوان، زاهد اشتهر بالورع والتقشف، اجتمع بأحمد بن حنبل في بغداد وشهد بعض الفتوح، قيل فيه: حاتم الأصم لقمان هذه الأمة، توفي سنة (٢٣٧)هـ.

(٦) شقيق بن إبراهيم البلخي، أبو علي، الزاهد، شيخ خراسان، صحب إبراهيم بن أدهم، وهو شيخ حاتم الأصم، كان من رؤوس الغزاة، قتل في غزاة كولان سنة (١٩٤)هـ.

قال: فما تعلمت مني في هذه المدة؟

قال: ثماني مسائل.

قال شقيق له: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب عمري معك، ولم تتعلم إلاَّ ثماني مسائل؟

قال: يا أستاذ، لم أتعلم غيرها، وإني لا أحب أن أكذب.

قال: هات هذه الثماني مسائل حتى أسمعها.

قال حاتم:

أما الأولى: فإني نظرت إلى الخلق، فرأيت كل واحد يحب محبوباً، فهو مع محبوبه إلى القبر، فإذا وصل إليه فارقه، فجعلت الحسنات محبوبي، فإذا دخلت القبر دخل محبوبي معي.

وأما الثانية: فإني نظرت في قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

فعلمت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق فأجهدت نفسي في دفع الهوى، حتى استقرت على طاعة الله تعالى.

وأما الثالثة: فإني نظرت إلى الخلق، فرأيت كل من معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه، ثم نظرت إلى قول الله عزّو جلّ:

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[2].

فكلما وقع معي شيء له قيمة ومقدار وجهته إلى الله ليبقى عنده محفوظاً.

وأما الرابعة: فإني نظرت إلى هذا الخلق، فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال، وإلى الحسب والشرف، فنظرت فيها فإذا هي لا شيء، ثم نظرت إلى قول الله تعالى:

---

(١) سورة النازعات: الآية (٤٠).

(٢) سورة النحل: الآية (٩٦).

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1].

فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريماً.

وأما الخامسة: فإني نظرت إلى الخلق وهم يطعن بعضهم في بعض، ويلعن بعضهم بعضاً، وأصل هذا كله الحسد، ثم نظرت إلى قول الله تعالى:

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2].

فتركت الحسد، واجتنبت الخلق، وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه، فتركت عداوة الخلق.

وأما السادسة: فإني نظرت إلى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضاً، فرجعت إلى قول الله عزّ وجلّ:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[3].

فعاديته وحده واجتهدت في أخذ حذري منه، لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدو لي، فتركت عداوة الخلق غيره.

وأما السابعة: فإني نظرت إلى هذا الخلق، فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه، ويدخل فيما لا يحل له، ثم نظرت إلى قوله تعالى:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[4].

فعلمت أني واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها، فاشتغلت بما لله عليَّ، وتركت ما لي عنده.

وأما الثامنة: فإني نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٣).
(٢) سورة الزخرف: الآية (٣٣).
(٣) سورة فاطر: الآية (٦).
(٤) سورة هود: الآية (٦).

مخلوق: هذا على ضيعته، وهذا على تجارته، وهذا على صناعته، وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله، فرجعت إلى قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[1].

فتوكلت على الله عزَّ وجلّ فهو حسبي.

● ومنها: أن يكون غير مائل إلى الترفه في المطعم والمشرب، والتنعم في الملبس، والتجمل في الأثاث والمسكن، بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك، ويتشبَّه فيه بالسلف ـ رحمهم الله تعالى ـ ويميل إلى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك.

والتحقيق فيه: أن التزين بالمباح ليس بحرام، ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق تركه.

● ومنها: أن يكون مستقصياً عن السلاطين، فلا يدخل عليهم ألبتة، ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً، بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاؤوا إليه، فإن الدنيا حلوة خضرة، وزمامها بأيدي السلاطين، والمخالط لا يخلو عن تكلف في طيب مرضاتهم، واستمالة قلوبهم، مع أنهم ظلمة.

وعلى الجملة: فمخالطتهم مفتاح للشرور، وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط.

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (إياكم ومواقف الفتن، قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول فيه ما ليس فيه)[2].

وكتب عمر بن عبد العزيز[3] رحمه الله إلى الحسن: أما بعد، فأشر عليَّ

---

(١) سورة الطلاق: الآية (٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (ش).

(٣) أمير المؤمنين، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. ذكره ابن سعد في الطبقة الثالثة من تابعي أهل المدينة. كان ثقة، له فقه وعلم وورع، وكان إماماً عادلاً رحمه الله، مات سنة (١٠١)هـ بدير سمعان.

بأقوام أستعين بهم على أمر الله تعالى. فكتب إليه: (أما أهل الدين فلا يريدونك، وأما أهل الدنيا فلن تريدهم، ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة). هذا في عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وكان أزهد أهل زمانه؟!

● ومنها: أن لا يكون مسارعاً إلى الفتيا، بل يكون متوقفاً ومحترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً، فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً أفتى، وإن سئل عما يشك فيه قال: لا أدري.

قال الشعبي: (لا أدري)، نصف العلم.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى[1]: أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم أحد يسأل عن حديث أو فُتْيا إلاَّ ودَّ أن أخاه كفاه ذلك.

● ومنها: أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن، ومراقبة القلب، ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه، وصدق الرجاء.

● ومنها: أن يكون حزيناً منكسراً صامتاً، يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته، وسيرته وحركته، وسكوته ونطقه.. وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم في السكينة والتواضع.

وأما التهافت في الكلام، والتشدق، والاستغراق في الضحك، والحدة في الحركة والنطق، فكل ذلك من آثار البطر، والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى، وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به.

● ومنها: أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال، وعما يفسدها، ويشوش

---

(١) عبد الرحمن بن أبي ليلى، من ثقات التابعين، ولد لست بقين من خلافة عمر، ومات بوقعة الجماجم غريقاً.

القلوب، ويهيج الوسواس، فإن أصل الدين التوقي من الشر.

ولقد كان الحسن البصري ـ رحمه الله ـ أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأقربهم هدياً من الصحابة رضي الله عنهم، اتفقت الكلمة في حقه على ذلك، وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب، وفساد الأعمال، ووساوس النفوس، والصفات الخفية الغامضة من شهوات النفس. وقد قيل له: يا أبا سعيد إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك، فمن أين أخذته؟ قال: من حذيفة بن اليمان.

وقيل لحذيفة بن اليمان: نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة، فمن أين أخذته؟ قال: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه)[1].

● **ومنها**: أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته، وإدراكه بصفاء قلبه، لا على تقليد ما يسمعه من غيره.

وإنما المقلَّد صاحب الشرع ﷺ فيما أمر به وقاله.

وإنما يقلد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من حيث إنّ فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله ﷺ[2].

ثم إذا قلد صاحب الشرع ﷺ في تلقي أقواله وأفعاله، فينبغي أن يكون حريصاً على فهم أسراره، وفعله ﷺ لا بد وأن يكون لسرّ فيه، فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال، فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالماً.

---

(١) متفق عليه (خ ٧٠٨٤، م ١٨٤٧)، ونصه فيهما: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني..).

(٢) قال المصنف (١/٢٣): واعلم أن من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال. فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكاً طريق الحق. وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى من اشتهر بدرجات الفضل بين الناس فلا تغفل عن الصحابة.

● ومنها: أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور، فلا يغرنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم، وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوالهم، وسيرتهم وأعمالهم.

واعلم تحقيقاً: أن أعلم أهل الزمان، وأقربهم إلى الحق؛ أشبههم بالصحابة، وأعرفهم بطريق السلف، فمنهم أخذ الدين، ولذلك قال علي رضي الله عنه: (خيرنا أتبعنا لهذا الدين)، لما قيل له: خالفت فلاناً.

***

البَابُ السَّابِعُ
فِي العَقْلِ وَشَرَفِهِ

اعلم أن بيان شرف العقل مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره، لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قِبَل العقل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة.

وقد اختلف الناس في حد العقل وحقيقته، وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة، فصار ذلك سبب اختلافهم.

والحق الكاشف للغطاء فيه: أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معانٍ:

فالأول: الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي[1] حيث قال في حد العقل: إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء.

الثاني: هو العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز، بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن من حنكته

---

(١) أبو عبد الله، الحارث بن أسد، البصري المولد، البغدادي المنزل والوفاة، الإمام العارف، عديم النظير في زمانه ورعاً وعلماً، أحد الزهاد المتكلمين في العبادة والزهد. وكانت وفاته بعد سنة (٢٤٣)هـ رحمه الله.

التجارب وهذبته المذاهب، يقال: إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال: إنه غبي.

الرابع: أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها: عاقلاً، من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب، لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواص الإنسان، التي بها يتميز عن سائر الحيوان.

فالأولان بالطبع، والأخيران بالاكتساب.

* * *

وقد اختلف الناس في تفاوت العقل.

والحق الصريح فيه أن يقال: إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة، سوى القسم الثاني، وهو العلم الضروري بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات.

أما القسم الرابع ـ وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات ـ فلا يخفى تفاوت الناس فيه، بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه. وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة، وقد يكون سببه التفاوت في العلم المعرِّف لغائلة تلك الشهوة.

وأما القسم الثالث ـ وهو علوم التجارب ـ فتفاوت الناس فيها لا ينكر، فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة، وسرعة الإدراك، ويكون سببه: إما تفاوتاً في الغريزة، وإما تفاوتاً في الممارسة.

* * *

فإن قلت فما بال أقوام يذمون العقل والمعقول؟

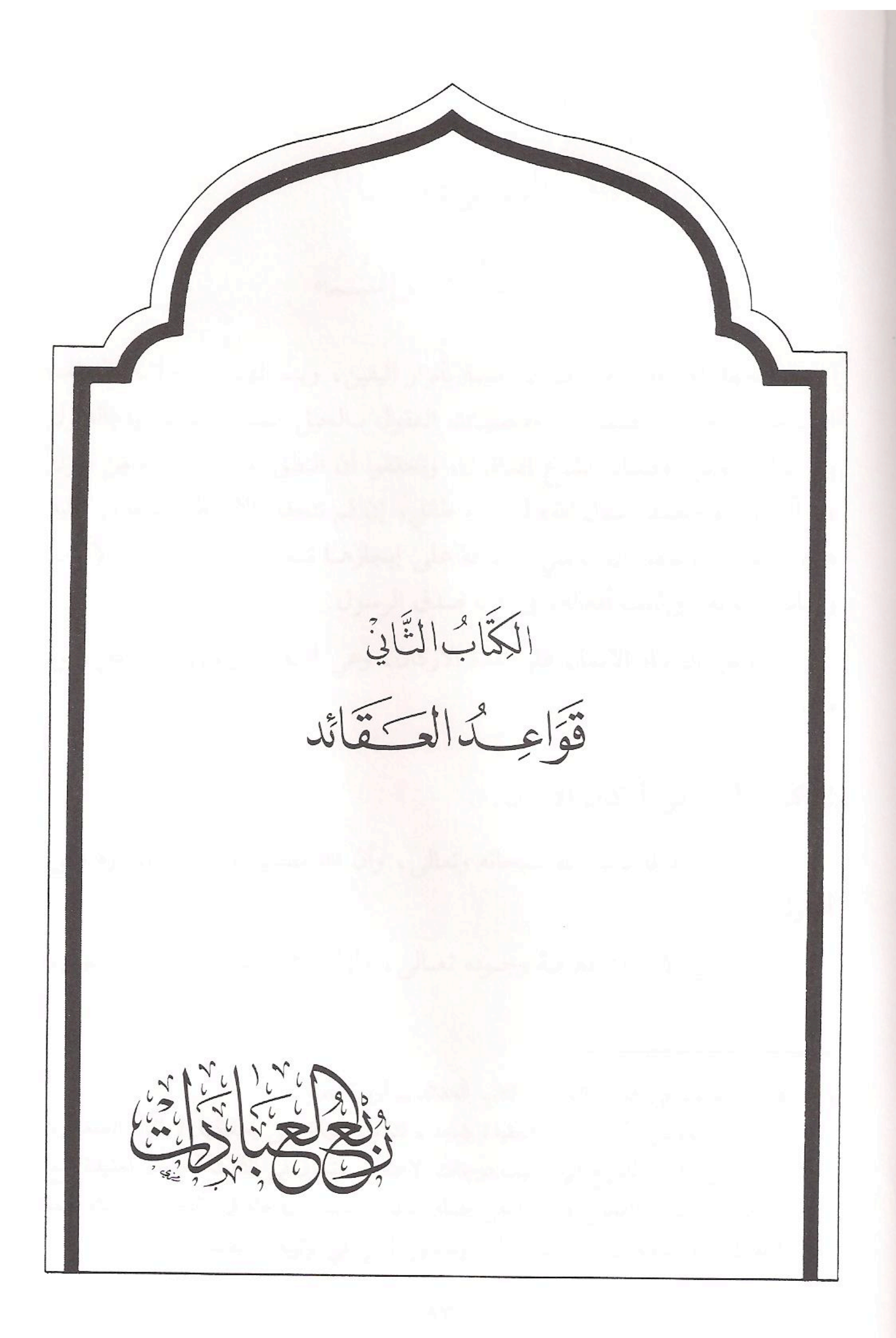
فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات. وهو صنعة الكلام، فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم: إنكم أخطأتم في التسمية، إذ كان لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة

به، ورسوخه في القلوب. فذموا العقل والمعقول، وهو المسمى به عندهم.

فأما نور البصيرة التي يعرف بها الله تعالى، ويعرف صدق رسله، فكيف يتصور ذمه؟!

وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ. فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ. فهذا القدر كافٍ في بيان العقل، والله أعلم.

***



الكِتَابُ الثَّانِي

قَوَاعِدُ العَقَائِد

الفَصل الأول[1]

عَقِيدَةُ أَهل السُّنَّة

الحمد الله الذي ميَّز عصابة السنة بأنوار اليقين، ويسر لهم اقتفاء آثار السلف الصالحين، حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحبل المتين، فجمعوا بالقول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول، وتحققوا أن النطق بما تعبدوا به من قول «لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله» ليس له طائل، إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة. وعرفوا أن كلمتي الشهادة على إيجازها تتضمن: إثبات ذات الإله، وإثبات صفاته، وإثبات أفعاله، وإثبات صدق الرسول.

وعلموا أن بناء الإيمان على هذه الأركان، وهي أربعة، ويدور على كل ركن منها أصول:

الركن الأول من أركان الإيمان:

وهو في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى، وأن الله تعالى واحد، ومداره على أصول:

(الأصل الأول): معرفة وجوده تعالى، وأول ما يستضاء به من الأنوار،

---

(١) ذكر المصنف في هذا الكتاب ـ كتاب العقائد ـ أربعة فصول:
تناول في الفصل الأول أصول العقيدة بإيجاز، لتكون سهلة حتى يحفظها الأطفال الصغار، وتناول في الثاني التدرج إلى ترتيب درجات الاعتقاد، وتناول في الثالث أصول العقيدة مع أدلتها.. وبما أن الفصل الأول يدخل جملة وتفصيلاً ضمن ما جاء في الفصل الثالث فقد اكتفيت به ووضعته في الترتيب: الأول وسيبقى الثاني في ترتيبه، ويصبح الرابع ثالثاً.

ويسلك من طريق الاعتبار، ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان، وقد قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[3].

فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل، إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات، وأدار نظره في عجائب خلق الله في الأرض والسماوات، وبدائع فطرة الحيوان والنبات، أن هذا الأمر العجيب، والترتيب المحكم، لا يستغني عن صانع يدبره، وفاعل يحكمه ويقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره، ومصرفة بمقتضى تدبيره.

ولذلك قال الله تعالى:

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٦٤).

(٢) سورة نوح: الآية (١٥ ـ ١٨).

(٣) سورة الواقعة: الآية (٥٩).

﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

ولهذا بعث الأنبياء ــ صلوات الله عليهم ــ لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا: «لا إله إلّا الله».

فإذن: في فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان.

(الأصل الثاني): العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل، أزلي ليس لوجوده أول. بل هو أول كل شيء، وقبل كل ميت وحي.

(الأصل الثالث): العلم بأنه تعالى ــ مع كونه أزلياً ــ أبدي، ليس لوجوده آخر، فـ: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾[2].

(الأصل الرابع): العلم بأنه تعالى مستوٍ على عرشه، بالمعنى الذي أراده الله تعالى بالاستواء، وهو الذي لا ينافي وصف الكبرياء، ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء.

(الأصل الخامس): العلم بأنه تعالى مرئي بالأعين والأبصار في الدار الآخرة، دار القرار، لقوله تعالى:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[3].

ولا يرى في الدنيا تصديقاً لقوله عزّ وجلّ:

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾[4].

ولقوله تعالى في خطاب موسى عليه السلام:

﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾[5].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (١٠).

(٢) سورة الحديد: الآية (٣).

(٣) سورة القيامة: الآية (٢٢ ــ ٢٣).

(٤) سورة الأنعام: الآية (١٠٣).

(٥) سورة الأعراف: الآية (١٤٣).

(**الأصل السادس**): العلم بأن الله عزَّ وجلّ واحد لا شريك له، فرد لا نـدَّ له، انفرد بالخلق والإبداع، واستبدَّ بالإيجاد والاختراع، وبرهانه قوله تعالى:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1].

الركن الثاني: الصفات:

العلم بصفات الله تعالى، ومداره على أصول:

(**الأصل الأول**): العلم بأن صانع العالم قادر، وأنه تعالى في قوله:

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾[2]

صادق، لأن العالم محكم في صنعتـه، مرتب في خلقتـه، ومن رأى ثوبـاً من ديباج، حسن النسيج والتأليف، متناسب التطريز والتطريف، ثم توهم صـدور نسجه عن ميت لا استطاعة لـه، أو عن إنسان لا قـدرة له، كـان منخلعاً عن غـريزة العقـل ومنخرطاً في سلك أهل الغباوة والجهل.

(**الأصل الثاني**): العلم بـأنه تعـالى عالم بجميـع الموجـودات، ومحيط بكل المخلوقات.

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[3].

صادق في قوله:

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[4].

(**الأصل الثالث**): العلم بكونه عزَّ وجلّ حياً، فإن من ثبت علمـه وقدرتـه ثبت بالضرورة حياته.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٢).

(٢) سورة المائدة: الآية (١٢٠).

(٣) سورة يونس: الآية (٦١).

(٤) سورة الحديد: الآية (٣).

(**الأصل الرابع**): العلم بكونه تعالى مريداً لأفعاله، فلا موجود إلَّا وهو مستند إلى مشيئته، وصادر عن إرادته، فهو المبدىء المعيد، والفعال لما يريد.

(**الأصل الخامس**): العلم بأنه تعالى سميع بصير، لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء.

(**الأصل السادس**): أنه سبحانه وتعالى متكلم، ولا يشبه كلامه كلام غيره، كما لا يشبه وجوده وجود غيره.

(**الأصل السابع**): أن كلامه قديم، وكذا جميع صفاته، إذ يستحيل أن يكون محلاً للحوادث، داخلاً تحت التغير.

(**الأصل الثامن**): أن علمه قديم، فلم يزل عالماً بذاته وصفاته، وما يحدثه في مخلوقاته.

(**الأصل التاسع**): أن إرادته قديمة، وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللائقة بها، على وفق سبق العلم الأزلي، إذ لو كانت حادثة، لصار محل الحوادث[1].

الركن الثالث: الأفعال:

العلم بأفعال الله تعالى، ومداره على أصول:

(**الأصل الأول**): العلم بأن كل حادث في العالم فهو فعله وخلقه واختراعه، لا خالق له سواه، ولا محدث له إلَّا إياه. خلق الخلق وصنعهم، وأوجد قدرتهم وحركتهم، فجميع أفعال عباده مخلوقة له ومتعلقة بقدرته، تصديقاً له في قوله تعالى:

---

(١) قال أهل السلف: ينبغي الإيمان بصفاته سبحانه التي وصف بها نفسه في كتابه أو وصفه بها رسوله في سنته. وذلك بأن نثبتها له كما جاءت في الكتاب والسنة بألفاظها ومعانيها اللائقة بكماله سبحانه وتعالى.

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[١].

وفي قوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[٢].

وفي قوله تعالى:

﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[٣].

(الأصل الثاني): أن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد، على سبيل الاكتساب، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً. وخلق الاختيار والمختار جميعاً.

(الأصل الثالث): أن فعل العبد، وإن كان كسباً للعبد، فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه، فلا يجري في الملك والملكوت طرفة عين، ولا لفتة خاطر، ولا فلتة ناظر إلاَّ بقضاء الله وقدرته وبإرادته ومشيئته. ومنه الشر والخير، والنفع والضر، والإسلام والكفر، والعرفان والنكر، والغواية والرشد، والشرك والإيمان؛ لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء:

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[٤].

(الأصل الرابع): أن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع، ومتطوِّل بتكليف العباد، ولم يكن الخلق والتكليف واجباً عليه.

(الأصل الخامس): أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء، فلا يجب عليه رعاية

---

(١) سورة الزمر: الآية (٦٢).

(٢) سورة الصافات: الآية (٩٦).

(٣) سورة الملك: الآية (١٤).

(٤) سورة الأنبياء: الآية (٢٣).

الأصلح لعباده، لأنه لا يجب عليه سبحانه شيء، بل لا يعقل في حقه الوجوب:

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[١].

(**الأصل السادس**): أن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل.

(**الأصل السابع**): أن الله سبحانه قد أرسل محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، وناسخاً لما قبله من شرائع اليهود والنصارى، وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة.

الركن الرابع: السمعيات:

الركن الرابع في السمعيات، وتصديقه ﷺ فيما أخبر عنه، ومداره على أصول:

(**الأصل الأول**): الحشر والنشر، وقد ورد بهما الشرع، والتصديق بهما واجب، ومعناه الإعادة بعد الإفناء، وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الإنشاء، قال الله تعالى:

﴿قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٢].

فاستدل بالابتداء على الإعادة[٣].

(**الأصل الثاني**): سؤال منكر ونكير[٤] وقد وردت به الأخبار، فيجب التصديق به.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٣).

(٢) سورة يس: الآية (٧٨).

(٣) حديث الحشر والنشر أخرجه الشيخان: (إنكم تحشرون إلى الله حفاة..) (خ ٤٦٢٥، م ٢٨٦٠ والذي بعده).

(٤) حديث سؤال منكر ونكير، أخرجه الترمذي وصححه ابن حبان (إذا قبر الميت أتاه ملكان

(**الأصل الثالث**): عذاب القبر[1]، وقد ورد الشرع به، قال الله تعالى:

﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦ ﴾[2].

واشتهر عن رسول الله ﷺ والسلف الصالح الاستعاذة من عذاب القبر[3].

(**الأصل الرابع**): الميزان. قال الله تعالى:

﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ ﴾[5].

(**الأصل الخامس**): الصراط[6]، وهو جسر ممدود على متن جهنم، أدق من الشعرة، وأحد من السيف، قال الله تعالى:

أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير)، وفي الصحيحين: (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ـ وإنه ليسمع قرع نعالهم ـ أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله..) (ع)، رقمه في مسلم [خ ١٣٧٤، م ٢٨٧٠].

(١) حديث عذاب القبر أخرجاه من حديث عائشة (إنكم تفتنون أو تعذبون في قبوركم...) الحديث (ع) (م ٥٨٤).

(٢) سورة غافر: الآية (٤٦).

(٣) استعاذته ﷺ من عذاب القبر، أخرجاه من حديث أبي هريرة وعائشة (خ ٦٣٦٥، م ٥٨٥).

(٤) سورة الأنبياء: الآية (٤٧).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٨).

(٦) حديث (الإيمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة)، أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة (ع).

﴿ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤ ﴾[1].

(الأصل السادس): أن الجنة والنار مخلوقتان. قال الله تعالى:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ﴾[2].

فقوله: ﴿أعدت﴾ دليل على أنها مخلوقة.

(الأصل السابع): أن الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عنهم.

(الأصل الثامن): أن فضل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على ترتيبهم في الخلافة.

(الأصل التاسع): أن شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة: الذكورة والورع والعلم والكفاية ونسبة قريش، لقوله ﷺ: «الأئمة من قريش»[3].

***

(١) سورة الصافات: الآية (٢٤).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٣٣).

(٣) أخرجه النسائي من حديث أنس والحاكم (ع).

الفَصْلُ الثَّانِي

التَّدَرُّجُ إِلَى الإِرْشَاد

تَرْتِيبُ دَرَجَاتِ الاعْتِقَاد

اعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوئه ليحفظه حفظاً، ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً، فابتداؤه الحفظ، ثم الفهم، ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به.

وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان، فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أول نشوئه للإيمان، من غير حاجة إلى حجة وبرهان، وكيف ينكر ذلك، وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرد، والتقليد المحض؟

نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خالٍ من نوع من الضعف في الابتداء، على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقي إليه. فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي، حتى يترسخ ولا يتزلزل.

وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يُعَلَّم صنعة الجدل والكلام، بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره، وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً: بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يَرِدُ عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم، وسيماهم وسماعهم، وهيئاتهم في الخضوع لله عزَّ وجلّ، والخوف منه، والاستكانة له.

فيكون أول التلقين كإلقاء بذر في الصدر، وتكون هذه الأسباب كالسقي والتربية له، حتى ينمو ذلك البذر، ويرتفع شجرة طيبة راسخة، أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وينبغي أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة، فإن ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهده، وما يفسده أكثر مما يصلحه، والمشاهدة تكفيك برهاناً.

فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس، بعقيدة المتكلمين والمجادلين، فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ لا تحركه الدواهي، وعقيدة المتكلم ـ الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل ـ كخيط مرسل في الهواء، تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا.

والصبي إذا وقع نشوؤه على هذه العقيدة، واشتغل بكسب الدنيا، يسلم في الآخرة باعتقاد أهل الحق. إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد. أما البحث وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلاً.

***